

مقالات

الولايات المتحدة الأمريكية
بعض مفاهيم القوة وموجباتها

د. رافع الفلاحى

الولايات المتحدة الأمريكية بعض مفاهيم القوة وموجباتها

د. رافع الضلاحي

(إننا لسنا مرتبطين بالعالم لأننا قطعنا على أنفسنا تعهدات بذلك، بل
لأن مصالحنا هي التي تصنع تعهداتنا وليس العكس)
ريتشارد نيكسون/ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٩م -
١٩٧٤م)

في محاولة لتسويق العنف واستعمال القوة ضد الدول والشعوب، كانت الولايات المتحدة وما تزال تطرح مفاهيم مضللة تعبر في حقيقتها عن جوهر الإمبريالية أو بناء (الإمبراطورية)، فالاستراتيجيات الأمريكية تطرح مفاهيم تبرز ذلك التناقض الكبير في نظرة الولايات المتحدة لنظام العلاقات الدولية التي تريد قيامه، وفي محاولة منها لتسويق نظريتها وأفكارها تذهب الولايات المتحدة إلى القول: إن نزوعها إلى بناء قوة عسكرية كبيرة وتطوير وسائل وإمكانيات تسليحها نابع ليس من مجرد شعورها بعدم الأمان فحسب بل للحفاظ على أمنها وأمن العالم.

الاستراتيجيون الأمريكيون (ومن خلال هذه النظرة) راحوا يحللون القوى المحركة للصراع الدولي على أساس ثلاثة عوامل رئيسية هي:

- (١) الموارد الأولية ومصادر الطاقة اللازمتين لتحقيق التفوق.
- (٢) عدد السكان المتنامي وحاجاتهم المتنامية.
- (٣) تطور التكنولوجيا وارتباطها المباشر بالتطور وبناء القوة المطلوبة.

معتبرين أن هذه العوامل كانت على حد سواء وراء إدراك الولايات المتحدة لقضية "الندرة".. فإذا كانت الولايات المتحدة تعد كل ما موجود من ثروات ومصادر الطاقة في العالم، هي مصادر أمريكية لكن التغيرات الجيولوجية هي التي وضعتها بعيداً عن خارطتها الجغرافية، فلا بد إذن (من منطلق المشروعية) أن تسعى الولايات المتحدة للسيطرة عليها حتى وإن استوجب ذلك منها دخول الصراعات والحروب مع غيرها ممن "يعتقدون" أنهم أصحاب هذه الثروات لمجرد أنها في أراضيهم!، ومن أجل تلبية حاجات ومطالب سياساتها، فإن الإدارات الأمريكية المتعاقبة التي هي واجهة للمؤسسات الاقتصادية والصناعية والعسكرية مستعدة للقيام بأي عمل يفهم الآخرون جهلهم ويصحح الأخطاء التي ارتكبتها التغيرات الجيولوجية، وإن إنتاج السلاح وتنويعه وإعداد الجيش بنحو كبير وتطوير قدراته الهجومية باستمرار يندرج تحت هذا "القناع" لتسويق تخصصها لإنتاج معين من الموارد المتوفرة في المجتمع الأمريكي وبما يمكنها من تحقيق التوسع وراء الحدود الجغرافية للولايات المتحدة.

وكما هو معلوم فإن "الندرة" كمصطلح قد لا يكون مرتبطاً بالموارد المادية الملموسة حسب، بل قد يشمل أموراً غير ملموسة مثل "المنزلة" أو "السمعة" أو "الأيديولوجية"، وإن الدول إما بسبب الندرة الفعلية في الموارد وتوزيعها غير السوي، أو بسبب الخوف من الندرة المحتملة قد تنزع إلى تنمية علاقتها وتعاونها مع الدول الأخرى وبناء جسور من تبادل المنفعة وبما يؤدي إلى خروجها من دائرة الخوف على مستقبلها بسبب افتقارها إلى عامل أو عدة عوامل من أسباب تقدمها واستمرار تطورها وضمان حياة أجيالها اللاحقة،

إلا أن هذا الحال لا يجد صده في سياسات الولايات المتحدة، فهي تنزع إلى تنمية توجه عرقي متمركز يصور المحيط الخارجي في الغالب بأنه مهدد وعدائي، وبهذا المعنى قامت الولايات المتحدة بإنتاج نظام سياسي واقتصادي واجتماعي يتعامل مع بقية الأنظمة في العالم بمفاهيم مشوهة تعبر عن عدم الثقة والشكوك والشعور بانعدام الأمان وبما يسوغ النزوع إلى استعمال القوة والعنف على النطاق الخارجي، وهكذا قامت صعبة بين الولايات المتحدة والقوة والعنف والإرهاب أفرزت قصة حياة هذه الدول التي آمنت بنفعية استعمال القوة قبل كل شيء، وإذا كان بعض التردد قد حصل في التعبير العملي عن هذا الإيمان الأمريكي المطلق، فإنه قد حصل بين الحرين العالميتين الأولى والثانية، فبعد هزيمة ألمانيا الإمبريالية وغياب خطرهما في الهيمنة على أوروبا والمحيط الأطلسي، وجد الأمريكيون أن من غير المربح في ذلك الوقت البوح بسياساتهم ودسّ أنف بلدهم في القضايا المعقدة للشعوب الأخرى والتي كانت الحروب العالمية قد جذرتها ووسعت تأثيرها، وبما يلحق خسائر بأمريكا لم تكن مجبرة على تحملها في الوقت الذي يمكن لها تحقيق أرباح هائلة باستغلالها الانتهازي للظروف والأوضاع الدولية المرتبكة في ظل انهيار اقتصاديات الدول التي كانت في ذلك الوقت تمثل الدول العظمى التي تتحكم بالنظام الدولي الذي كان قائماً آنذاك كبريطانيا وألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية العثمانية.

وهكذا فإن السياسة (الانعزالية) التي اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية منهجاً لها ما بين الأعوام ١٩٢٠م و ١٩٤٠م كانت بمنزلة مرحلة الوثوب الأخيرة نحو عالم النزوات والعنف والإرهاب الأمريكي الواسع بعد عقود

من المناوشات التي كانت تعود على الولايات المتحدة بمنافع كثيرة وكبيرة، وقد حان الوقت لأمريكا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية لارتداء ثوب الحرب وأقنعة إخفاء النوايا ونظرات الذئاب المملوثة شهوة بدنو الفريسة لتمزيقها بتلك الأظافر القاسية والأنياب المدربة جيداً على التقطيع.

لقد كانت هناك أسباب كثيرة تجعل الأمريكيين يؤمنون بدعوة (تيودور روزفلت): (ليس لدينا خيار نحن شعب الولايات المتحدة في القيام بدور عظيم في العالم، بل لابد من القيام به)، فالأمريكيون كانوا يتطلعون بشغف إلى حالة القوة العظمى المتفوقة، ويتطلعون إلى عصر ذهبي يفرضون فيه أنفسهم على العالم بالقوة، وهو التطلع نفسه الذي راود المغول والتتار الذين اجتاحتوا العالم في القرن السابع الميلادي ودمروا من خلاله أسس الحضارة والثقافة والعلوم وأسسوا على جماجم البشر إمبراطورية ضاعت فيها خصائص الشعوب وانجازاتها، ولقد آمن الأمريكيون بالقوة مثلما فعل المغول والتتار ونسوا وتجاهلوا نهاية ذلك المد المتوحش، وغابت عنهم حقيقة أن القوة دائماً تستدعي القوة وإن ميزة التحكم والسلطة تكون بحجم القدرة على الصمود وتغذية القوة بمقومات جديدة تعززها، وإلا فإنها الطريق الأقصر للانهايار، وحين تنبه الأمريكيون إلى هذه الحقيقة راحوا يعالجون الحال بما يضعف (وإن كانت الأقنعة قد أظهرته على إنه دليل تعزيز للقوة وقدراتها).. لقد كانوا يحملون بأن يصبحوا أكثر قوة عن طريق التهالك في سباق التسلح الذي مكنهم من التفوق عسكرياً في الوقت الذي قربهم من الانهيار الاقتصادي نتيجة الأثمان الباهظة والجهود الهائلة التي بذلوها على هذا الطريق، وكان عليهم قبل أن يسلكوا مثل هذا الطريق أن يسألوا أنفسهم: كيف يمكن أن نعزز الآخرين لخسارة من

دون أن نعرض الداخل الأمريكي لخطر خسارة أفدح؟، ولو كان الأمريكيون قد واجهوا أنفسهم بهذا السؤال وأجهدوا عقولهم في البحث عن إجابته لما غاصت أقدامهم في أوحال فيتنام ولما اشتهم الأمريكيون روائح الأفعال الكريهة لدولتهم، ولما شاهد الأمريكيون فيما بعد على شاشات التلفزيون جنودهم يُسحلون عام (١٩٩٣م) في شوارع العاصمة الصومالية (مقاديشو) عندما احتل الأمريكيون الصومال تحت قناع (عودة الأمل)، ولما كان الأمريكيون يشاهدون قبل ذلك وبعده صور الأطفال العراقيين وهم يموتون بسبب نقص الغذاء والدواء نتيجة الحصار الشامل الذي فرضته دولتهم على العراق (١٩٩٠م-٢٠٠٣م) تحت قناع الحفاظ على الشرعية الدولية وتحقيق العدالة والحفاظ على حقوق البشر!، ولما واجهوا منذ احتلالهم العراق عام (٢٠٠٣م) حقيقة مقتل الآلاف من جنودهم ولما شاهدوا أو سمعوا بقتل العشرات من العراقيين الذين قُتلوا دفاعاً عن وطنهم ضد الغزو الأمريكي، أو بسبب سياسات التمييز والتفرقة التي أشاعتها أمريكا بين العراقيين ولما تكلفت الميزانية الأمريكية أكثر من ترليون دولار لتمويل مشروع احتلالهم للعراق.. وغيرها من الأفعال التي لم تستطع كل الأقنعة الأمريكية تسويقها، الأمريكيون وبعد فشلهم وخيبتهم الكبيرتين في فيتنام، واجهوا أنفسهم ودولتهم بكل مؤسساستها بسؤال خطير له دلالاته على سقوط كل الأقنعة التي صنعتها دولتهم في تلك الفترة لتسويق سياستها وأفعالها، والسؤال هو: هل أن دولتنا _الولايات المتحدة_ هي حقاً قوة عظمى؟.. وهو السؤال نفسه الذي عاد يتردد على ألسنة الأمريكيين بعد فشلهم في العراق وحتى في أفغانستان التي احتلتها جيوشهم عام ٢٠٠١م.

إن جميع الرؤساء الأمريكيون الذين تتابعوا منذ (جونسون وحتى جورج دبليو بوش)، واجهوا هذا السؤال الشعبي بتكرار بعد أن اكتشف الشعب الأمريكي ذلك الفشل الذريع الذي تعرضت له الولايات المتحدة في فيتنام ومن ثم في العراق، واشتم الرائحة العفنة للأفعال اللاإنسانية التي ارتكبت بحق الفيتناميين والعراقيين وحتى بحق الأمريكيين أنفسهم، الأمر الذي دفع نسبة كبيرة من الأمريكيين لمطالبة حكومتهم بالعودة إلى "العزلة" التي كانت عليها دولتهم من قبل، من دون أن يدركوا أن العزلة الأمريكية كانت اللجوء المرتبط مع ظروف موضوعية، ولم تأت من فراغ.. بل من تقييم انتهازي لفرص الزمن جرى خلالها احتلال أراضي واسعة والامتداد لفرض الهيمنة على رقعة شاسعة من أراضي الدول المجاورة للولايات المتحدة، إضافة إلى أنها كانت فرصة لبناء اقتصاد قادر على احتلال السوق المحلية ومجابهة أعباء المنافسة الخارجية، كما أن تلك العزلة قد وفرت للولايات المتحدة فرصاً لبناء قوة عسكرية هائلة تمكنها من تنفيذ مهمات ضد الحلفاء والأصدقاء على حد سواء، وإذا اكتملت كل تلك الخطوات بدأت مرحلة التخلي النهائي عن مبدأ (لكل امرئ شأنه شأنه) الذي سبق أن تبنته السياسة الأمريكية لتضمن لنفسها مرحلة انعزالية مثالية تحقق من خلالها الصعود نحو القوة.

لقد كانت نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م إيذاناً ببداية عهد أمريكي جديد دشن بتبني مبدأ (هاري ترومان) الذي لخصه في خطابه الشهير في الكونغرس خلال شهر آذار عام ١٩٤٧م، والذي جاء ضمن خطة الحكومة الأمريكية للتعنت الشعبية ضد الاتحاد السوفيتي آنذاك باعتباره كان يمارس ضغوطاً ضد اليونان وتركيا الدولتين الحليفتين للولايات المتحدة والتي تعتبرهما

واشنطن من المفاتيح المهمة لممارسة ضغوطها على الاتحاد السوفيني من مناطق قريبة من حدوده، وقد كانت الولايات المتحدة قد أعلنت مساندتها لهما.. وإزاء ذلك قال ترومان في خطابه: (إننا حين نساعد الشعوب الحرة فإننا نعينها في الحفاظ على مؤسساتها ووحدها الوطنية ضد الحركات العدوانية التي تسعى لفرض الأنظمة السياسية الشمولية).

ولم يكن إطلاق الولايات المتحدة لمبدأ التدخل الواضح في شؤون الآخرين تحت "قناع" المساعدة وصيانة السلام العالمي، ليتم بمعزل عن حملة إعلامية تولت تنفيذها الصحافة وأجهزة الدعاية الأمريكية الأخرى لتسويق التصرفات اللاحقة من خلال القول إن أمن الولايات المتحدة يتعرض للتهديد ولا بد من ممارسة سياسة "الاحتواء" التي بإمكانها أن تضمن للأمريكيين النوم الهانئ بسلام، ولقد كانت أجهزة الدعاية الأمريكية تهدف من وراء انجازها لهذه المهمة بهذا النحو، صناعة وجه أمريكي (قناع) يخفي الحقيقة بقياس وشكل يناسب البراغماتية (pragmatism) التي طرحها ترومان في خطابه، وبما يجعل الشعب الأمريكي يصدق بأن حكومته مضطرة دفاعاً عنه للتصدي لحالة (الاضطراب والعدوانية) التي تحدثها الشيوعية ونظامها الشمولي في جميع أنحاء العالم لتقويض أسس عالم الحرية والنظام الديمقراطي الذي تمثله الولايات المتحدة، وعلى هذا الأساس كان وقع خطي الجنود الأمريكيين يأخذ مداه الواسع في الحرب الكورية لترسيخ الانفصال بين شمال وجنوب شبه الجزيرة والتعبير عن سياسة التفتيت التي تؤمن بها الولايات المتحدة لتحقيق هيمنتها على العالم، وبمعنى أصح وأشمل الدفاع عن القاعدة الأمريكية المتقدمة في كوريا الجنوبية القريبة من حدود الصين والاتحاد السوفيتي على حد سواء، وفي الوقت

نفسه كانت واشنطن قد تحركت بنحو سريع لإثارة مخاوف أوروبا من خطر الوقوع تحت الهيمنة السوفيتية، وبما منحها فرصة فرض هيمنتها على أوروبا الغربية بحجة الدفاع عنها ضد المخاطر السوفيتية والشيوعية، وقد أثمرت تحركاتها بإقامة شبكة واسعة من الأحلاف العسكرية والمعاهدات الأمنية والسياسية والاقتصادية، تولت الولايات المتحدة رئاستها والسيطرة التامة على قراراتها وتوجهاتها، وكان من بين أهمها (حلف شمال الأطلسي) الذي تضمنت وثيقتة الموقعة في نيسان ١٩٤٩م تفويضاً للولايات المتحدة بفرض هيمنتها على أوروبا الغربية بحجة المشاركة في عملية الدفاع عنها ضد الخطر الشيوعي القادم من الشرق.

وفي كل تحركاتها لفرض هيمنتها، كانت الولايات المتحدة تحرص وعلى كل المستويات أن يكون ملهمها العميق في السياسة الخارجية هو التصرف من جانب واحد ومن دون انتظار حتى موافقة شركائها على ما تعزم القيام به والذين يجب عليهم تقديم الدعم والمساندة لها وعلى جميع الأصعدة التي تراها واشنطن مفيدة لتحقيق مصالحها وأهدافها وهو موقف أعلن عنه فيما بعد الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون بالقول: (إننا لسنا مرتبطين بالعالم لأننا قطعنا على أنفسنا تعهدات بذلك، بل لأن مصالحنا هي التي يجب أن تصنع تعهداتنا وليس العكس)، وما هذا القول إلا مزيج من الاستخفاف بالآخرين وحب الذات اللذان يجعلان الولايات المتحدة تظن أنها بمنأى عن مشاكل الآخرين وأحزائهم، ويحق لها بالتالي أن تدوس على رقاب الآخرين من أجل مصالحها فقط، وتلك هي قمة الصلافة التي تمتاز بها السياسة الأمريكية حتى مع أقرب حلفائها، وتأسيساً على ذلك، وطن الأمريكيون أنفسهم للدخول في

مغامرات لا نهاية لها عبرت عن سياسة بلادهم الحمقاء التي قذفت بهم في خضم مشاحنات وحروب وعداءات عديدة، وسوف تبقى حادثة إلقاء القنبلتين الذريتين في ٦ و ٩ آب ١٩٤٥م على مدينتي "هيروشيما وناغازاكي" اليابانيتين بمنزلة بداية لتاريخ أمريكي حديث ومعاصر موصول بتاريخها القديم ومكمل له، تتابعت فصوله بنحو مثير للدهشة يؤكد ذلك الإصرار الأمريكي على ارتكاب مجازر متعمدة لاثبات القدرات والقوة والتصميم على استعباد الشعوب، ولم يكن كل ذلك يجري من دون "أقنعة" تسوغ الباطل.

وثمة حقيقة هنا تؤشر أن الرؤساء الأمريكيون كانوا دائماً أول من يتولى الإفصاح عن شكل وطبيعة "القناع" الذي يلبسون به الباطل لباس الحق، كجزء من وظيفتهم عندما يتصاعد القلق في نفوس الأمريكيين وشعوب العالم إزاء تصرف أو سياسة أمريكية معينة، فالرؤساء يتولون مهمة إلقاء خطابات مزينة بعبارات الحسم والإنذار والتحذير التي تفرضها المبادئ والمثل العظيمة، في محاولة لطمس حقيقة الأهداف والنوايا، فالرئيس الأمريكي (وودرو ولسون) كان يرى بوضوح تام في عام ١٩١٧م أن الكفة تميل لصالح الهيمنة الألمانية _ خلال الحرب العالمية الأولى _ وبما سيؤدي إلى قيام ألمانيا بفرض سيطرتها على المحيط الأطلسي (بمعنى أن ألمانيا ستنازع الولايات المتحدة في فرض الزعامة والهيمنة على المحيط الأطلسي).. غير أن "ولسون" لم يكشف عن معرفته عندما توجه بالخطاب إلى الأمريكيين، إذ راح يتحدث عن حرية الملاحة الدولية وعن الحرب التي دخلتها الولايات المتحدة في سبيل حرية البشر والديمقراطية والعدالة والحرية، أما الرئيس (فرانكلن روزفلت) فقد وجد مهمته في ارتداء القناع أشد يسراً ممن سبقوه لتسويق اشتراك الولايات المتحدة في

الحرب العالمية الثانية بسبب أن المد الألماني آنذاك كان عالياً ومستمراً يهدد بغمر أوروبا كلها، فقد أدرك روزفلت منذ عام ١٩٤٠م أن بلاده ليس لديها خيار بين الحرب والانعزالية، ولكنه أخفى المصالح المتعددة للولايات المتحدة والمكاسب التي ستجنيها من هذه الحرب، وراح يتحدث عن التدخل في أوروبا لحماية الحرية والديمقراطية.

وفي الهند الصينية، ومنذ عهد (ترومان وحتى عهد جونسون)، طرح الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون مختلف أنواع الأسباب التي تسوغ تدخلهم وحروبهم هناك: (النضال ضد الإمبريالية الفرنسية، التصدي للخطر الشيوعي السوفيتي، مساعدة الشعوب في الدفاع عن حريتها وتقرير مصيرها، المسؤولية الأمريكية في تحقيق السلام.. وغيرها)، لكن أياً من هذه الأسباب المذكورة لم تكن حقيقية، لذلك انهارت كلها عام ١٩٦٦م أمام حقيقة عدم وجود مصلحة أمريكية معرضة للخطر تستوجب من الولايات المتحدة الغوص في أوحال فيتنام وأدغالها، وعندما واجه الأمريكيون هذه الحقيقة في ظل نتائج وخيمة ومعاكسة لكل ما كان الرؤساء والإدارات الأمريكية يعدون به، اكتشفوا أن رؤساءهم لم يكونوا من أصحاب العقول الراجحة والآراء السديدة، ولم يكونوا صادقين حيال شعوب الأرض والشعب الأمريكي بنحو خاص، فغرسوا أقدامهم وكل ما بناه وأسس قواعده في رمال متحركة.. فكيف يمكن بناء دولة حقيقية أو قوة حقيقية على رمال متحركة؟، ومن المفيد هنا أن نذكر رأيين أوردهما المفكر الفرنسي "روجيه غارودي" في كتابه "الولايات

المتحدة الأمريكية... طليعة الانهيار"^(١) على لسان اثنين من مخططي السياسة الأمريكية.. فقبل نشوب الحرب الكورية بقليل في (١٩٥٠م) أقرت وثيقة تحديد الخط السياسي للولايات المتحدة، وهي وثيقة حررها "باول نتر" الذي خلف "جورج ككن" في رئاسة مجلس الدولة للتخطيط ضمن مجلس الأمن القومي، وقد كتب "جورج ككن" عام ١٩٤٨م يقول (إننا نمتلك ما يقارب (٥٠%) من ثروات العالم ولكننا لا نملك من سكانه سوى (٣,٦%), وفي موقف كهذا لا يمكن تفادي أن نكون عرضة للغيرة والأحقاد، ولذلك فمهمتنا في الفترة القادمة هي أن نطور نظاماً للعلاقات التي تسمح لنا بأن نسيطر على هذا الموقف من اللامساواة من دون أن نعرض أمننا القومي للخطر، وحتى نحقق ذلك سيتحتم علينا أن نتخلى كليةً عن العواطف وأن لا نحلم أحلام اليقظة، يجب أن تكون نيتنا مركزة على أهدافنا القومية الملحة، يجب أن لا نخدع أنفسنا، فلن نستطيع اليوم أن نسمح لأنفسنا بترف تفضيل الغير علينا، ولا بعمل الخير على الساحة العالمية، ويجب أن ننتهي عن الكلام في الأهداف العامة وعن الشرق الأقصى الذي يجب أن يتحقق فيه احترام حقوق الإنسان وارتفاع مستوى المعيشة والديمقراطية، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي سيتحتم علينا التحدث فيه بصراحة وبلغة موازين القوة.. ولكن سوف تعكس صفونا شعارات المثالية، نعم سيحدث ذلك)، وكان "جورج ككن" قد أقيـل من منصبه لأن السلطات الأمريكية عدته (العين الثاقبة). بمعنى أن هذه السلطات قد وجدته خارج مجموعة من يصنعون الأقنعة التي تسوغ سياساتها الأمر الذي

(١) روجيه غارودي: الولايات المتحدة الأمريكية... طليعة الانهيار، ترجمة كمال جاد الله، ص ٤٦ -

سيعري هذه السياسات ويظهرها على شكلها الحقيقي أمام الجميع من دون تزويقات أو دبلوماسية، أما الرأي الثاني فقد ورد على لسان "بول نتر" وهو يوضح أهداف خطته المعروفة بـ (خطة الصقور) بالقول: (الولايات المتحدة تمتلك قوة عالمية، ولذلك فمن الضروري أن تحدد لها عدواً شاملاً _ وكان آنذاك الاتحاد السوفيتي _)، فقد اعتبرت السلطات الأمريكية الاتحاد السوفيتي شيطاناً، واعتبرت كل شكل من أشكال التدخل أو العدوان من جانب الولايات المتحدة مسوغاً منذ البداية، فهو رد فعل للدفاع ضد تهديد شامل، وعلى أساس هذين الرأيين يمكن رؤية شكل وأغراض بعض "الأقنعة" التي تصنعها الولايات المتحدة لتسويق أفعالها، ففي حالة العدوان الأمريكي على كوريا أو فيتنام لم يكن بمقدور السياسيين الأمريكيين القول بأن كوريا أو فيتنام قامت بغزو الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة هي التي قامت بغزوهما وهما على بعد آلاف الكيلومترات من حدودها.. لكن السياسيين الأمريكيين اعتبروا أن الولايات المتحدة قد قامت بذلك وهي في حالة دفاع شرعي عن النفس لوقف المد السوفيتي هناك.

وإذا ما تركنا تلك السنوات البعيدة نسبياً، وقفزنا إلى سنوات قريبة مضت سنجد الصورة ذاتها تتكرر بإصرار عجيب، وكأن الإمبراطورية الأمريكية محكومة بالانهيار بسبب سياسات رجال الحكم فيها، الذين أهملوا ويهملون أقدار بلادهم وأقدار حلفائها.. فهذا الرئيس الأربعين للولايات المتحدة (رونالد ريغان) يعلن في رسالة إلى الكونغرس عام ١٩٨٧م (أن الأمريكيين غير مهيين لمعاملتهم وكأنهم حمقى في الحلبة التجارية الدولية، فهم سيكسبون أكثر على الصعيد العالمي إن أخفوا دوافعهم بنحو أقل)، وإذا كان هذا القول

موجهاً إلى الأمريكيين بنحو خاص، فإن "هنري كيسنجر/ وزير الخارجية الأمريكية الأسبق" كان قد وجه كلاماً مختصراً ومعبراً عن الرؤية الأمريكية للعلاقة مع الحلفاء الأوروبيين، حين قال في عام ١٩٧٩م: (إن على الأوروبيين أن يكفوا عن مطالبتنا بتأكيدات استراتيجية معقدة لا نستطيع أن نمنحها لهم، حتى إن أعطيناها لهم فإننا لا نرغب بالوفاء بها وإلا جازفنا عندئذ بتدمير الحضارة)، وقد جاء هذا الكلام ليؤكد رؤية أوروبية مستقلة وواقعية كان الجنرال (شارل ديغول) قد وضحها عام ١٩٦٣م بالقول: (لا يمكن لامرئ في أمريكا أن يقول أين أو كيف أو متى سوف يجري استعمال الأسلحة النووية الأمريكية في الدفاع عن أوروبا)، ولقد كان ديغول يحذر في قوله من مغبة الانجرار الأوروبي وراء الوعود الأمريكية الكاذبة، وفي الوقت نفسه كانت الولايات المتحدة تمارس ضغوطات شديدة على أوروبا وخصوصاً على فرنسا لمنعها من التزود بالسلاح النووي ولمنعها من الظهور كقوة مؤثرة قد تنافس قوة الولايات المتحدة وتستحوذ على مساحة نفوذ دولي لا ترغب "واشنطن" في أن تكون من حصة غيرها، فالولايات المتحدة ترى أنها الدولة الأكثر غنى في العالم والأكثر جدارة بقيادة أوروبا والعالم، ولهذا فهي جديرة بالثقة الكلية.. ومن هنا فإن مبدأ تدخلها واتخاذها القرارات من جانب واحد وممارسة التفوق والتصدي للآخرين، كان وما يزال من المبادئ الأساسية في استراتيجية الولايات المتحدة للسيطرة على العالم وخلق حالة من عدم التوازن في كل المستويات الدالة على القوة (السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية.. وغيرها) بشرط أن يميل الميزان لصالحها وعلى الآخرين أن يتصرفوا

مع هذا الوضع على إنه أمر طبيعي وحق مكتسب ويجب عليهم، احترامه وعدم المساس به.

إن الطبيعة الجذرية لاختلال التوازن الذي حاولت الولايات المتحدة إيجادها وتمييزها لتسويغ تدخلاتها، لا تقتصر (وفقاً للتفكير الأمريكي الأناني) على مجموعة من الدول أو الشعوب من دون أخرى، فعلى الرغم من أن السياسات الأمريكية وقد عبرت (منذ ظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى على الساحة الدولية) عن هذه الطبيعة بما يوحي أن البلدان الفقيرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هي المقصودة باعتبارها تؤلف تجمعاً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً منفصلاً بالقياس إلى دول الغرب والعالم المتقدم، وبما يستوجب وجوداً ملموساً ومؤثراً للقوى والمستويات المتقدمة في هذه الدول (الفقيرة) بدعوى وأقنعة زائفة تتحدث عن المساعدة لخلق قواعد وجسور للتواصل مع العالم المتقدم .. لكن واقع التصرفات الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم يؤكد أن نموذج التبعية الذي تخطط وتسعى إليه الولايات المتحدة مبني على أساس وجود نظام غير متكافئ بينها وبين كل دول العالم وشعوبها (متقدمة أو متخلفة)، بمعنى أن نمط علاقات الولايات المتحدة يجب أن يكون باستمرار في مصلحتها ويشكل أضراراً بالطرف الآخر حتى وإن كان من حلفائها، فالكل يشكل محيطاً وهي المركز، والنتيجة هي تطور كل المستويات الدالة على القوة (السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والاجتماعية.. وغيرها) في المركز وعلى حساب المحيط بما يضم هذا المحيط (وفقاً لتشكيل هندسي تكبر فيه الدوائر كلما ابتعدت عن المركز) من دول الغرب المتقدم ثم دول قريبة أو على عتبة التطور والتقدم ثم دول ضعيفة وفقيرة (اصطلح على تسميتها في الأدبيات

السياسية بدول العالم الثالث)، وكل هذه الدول الموزعة على الدوائر هي (وفقاً للنظرة الأمريكية) بحاجة ماسة إلى الحماية الأمريكية وموجبات التقدم وفق النمط الأمريكي، وهي أيضاً بحاجة إلى المعرفة والمهارات والتنظيم والقيم والتكنولوجيا ورأس المال من العالم الحر (أمريكا)، فالولايات المتحدة وفقاً للتفكير الاستعماري الشامل الذي تؤمن به هي مركز (النخبة) ولا بد لهذه (النخبة) من دور متميز وغير مقيد وحصّة متميزة في كل الموارد المادية المتوفرة في العالم، كما إنها يجب أن تتولى من دون مشاركة مسؤولية تحديد الكم والنوع الذي تحتاجه أية دولة أو مجموعة من هذه الموارد، والكيفية التي تحصل من خلالها على ما تحتاجه وفقاً لشروط تضعها واشنطن، وهو ما تطلق عليه الولايات المتحدة تسمية (نظام دولي).

بين نهاية التاريخ
ونهاية أمريكا . . !؟

أحمد الهواس

بين نهاية التاريخ... ونهاية أمريكا...؟!؟

أحمد الهواس^(١)

كلما جرت انتخابات أمريكية انشغل العالم بالمرشح الديمقراطي وخصمه الجمهوري واختزلت أخبار العالم بمن سيدخل البيت الأبيض، وكأن الداخل لهذا البيت هو رئيس العالم أو هكذا يبدو... ولكن هذه المرة لن يكون خليفة بوش مرتاحاً في الأقل فهو ليس زعيم العالم المنتظر، فقد آن لأحادية القطب أن تنتهي، وهناك مشاكل كثيرة أوقعت إدارة بوش أمريكا بها وبالتالي انعكست أزماتها على العالم أجمع، وبات المتربصون بأمريكا يجاهدون علناً بخطأ سياساتها على الأصعدة كافة! فمن فشل عسكري (العراق وأفغانستان) إلى فشل مالي (الأزمة المالية وسبققتها بقليل أزمة الغلاء العالمي والصعود الجنوبي لأسعار البترول) والغزو الروسي لجورجيا رغم الدعم الأمريكي لها، وكذلك استعراض القوة الروسية في الحديقة الخلفية لأمريكا...!

وهكذا لن يكون خروج بوش الابن أمراً عادياً بل مصحوباً بالكوارث والأزمات وربما إيذاناً بنهاية القرن الأمريكي الذي بشر به المحافظون الجدد وعلى رأسهم فرانسيس فوكوياما.

قبل أن يحدث كتاب فوكوياما (نهاية التاريخ) جدلاً في الأوساط العالمية كان قد سبق ذلك بمقال له عام ١٩٨٩م يحمل العنوان ذاته، ثم طوره من مقال إلى كتاب كان سبباً في مصائب تترا، وأستند على آراء مؤلفه في غزو أفغانستان والعراق بحجة محاربة الأصولية أو ما عرف فيما بعد الإرهاب.

(١) كاتب وإعلامي سوري مقيم في القاهرة.

مؤلف العمل رأى أن الدنيا قد خاضت تجارب عدة وفشلت وآخرها الشيوعية، وما أن سقطت النظم الشمولية الاشتراكية حتى لاذت بعدو الأمس الديمقراطية الليبرالية، فنهاية كل التجارب تصب بالتجربة الغربية والليبرالية الرأسمالية الغربية والنموذج الأمريكي تحديداً وأي تطور سيكون طفيفاً في التجربة الأخيرة للبشرية، فهي نتاج الشرعية كما يقول.... ويطرح في نهاية مقدمة كتابه سؤالاً: هل يقود التطور التاريخي المضطرد الغالبية العظمى من البشر نحو النظام الرأسمالي الليبرالي؟ والإجابة التي تمكنت من الوصول إليها هي: نعم...!!، وبعد صدور كتابه عام ١٩٩٢م قال فوكوياما في لقاء مع وكالة أورينت برس: ((لقد حققت أمريكا أضخم انتصار مع نهاية القرن العشرين.. إبادة الشيوعية، وسحق العراق، ولا أحد يشك الآن في أن أمريكا هي زعيمة العالم، نحن الأقوى والأعظم، انظروا إلى الروس والشعوب الأخرى التي خلعت رداء الشيوعية وجاءت لتحتمي بأمريكا! أنا أمريكي مائة بالمائة ولا أعاني إطلاقاً من ازدواجية الانتماء، فأنا _ رغم أصولي اليابانية _ ابن أمريكا.. إن أمريكا هي آخر بلد يمكن أن يُكن للاعتبارات العائلية أو العرقية أية أهمية، وهي لم تقم _ كما يدعي البعض _ على أشلاء أهلها الأصليين من الهنود الحمر والآزتيك الذين كانوا يذبحون أطفالهم قرايين للآلهة. إن وصول المهاجرين الأوربيين لم يكن عملاً بربرياً، بل كان إنجازاً حضارياً، هل يمكن أن نتخيل مدى سوء الأوضاع فيما لو ظلت أمريكا مأهولة بتلك المخلوقات البدائية!، لدي إحساس قوي بأنني سأصبح شيئاً مهماً في التاريخ الأمريكي الجديد ربما كان البيت الأبيض)).

فوكوياما المبشر بالأنموذج الأمريكي والذي كان داعماً لتوجهات المحافظين الجدد ففي عام ١٩٩٧م أسس مركزاً للبحوث تبنى مشروعاً أطلق عليه (مشروع القرن الأمريكي)... هو المتناقض في أفكاره وآرائه، فبعد غزو العراق دعا إلى استقالة وزير الدفاع (دونالد رامسفيلد) ورأى أن إدارة بوش قد هولت من خطر الأصولية الإسلامية مما أدى إلى تنامي العداء للولايات المتحدة الأمريكية...!

وما أن ضربت الهزة المالية الولايات المتحدة الأمريكية حتى سارع إلى التصريح بأن النفوذ الأمريكي يتضاءل وقد نشر مقالاً في (نيوزويك) يقول فيه: إن أميركا لم تستمد سلطاتها ونفوذها من دباباتنا ودولاراتنا، ولكن من إحساس السواد الأعظم من الناس بجاذبية النمط الأمريكي في الحكم مما جعلهم يتوقون إلى إعادة صياغة مجتمعاتهم على نفس الشاكلة التي أطلق عليها أستاذ العلوم السياسية (جوزيف ناي) مصطلح "قوتنا الناعمة"، ومن العسير أن ندرك كنه الضرر الذي لحق بالأنموذج الأمريكي في سماته المميزة، ففي السنوات ما بين ٢٠٠٢م و٢٠٠٧م عندما كان العالم يمر بفترة غير مسبوقه من النمو، كان من السهل تجاهل أولئك الاشتراكيين الأوروبيين والمدافعين عن حقوق عامة الناس ممن شجبوا الأنموذج الاقتصادي الأمريكي ووصفوه بأنه "رأسمالية رعاة البقر"، غير أن محرك ذلك النمو، الذي هو الاقتصاد الأمريكي، قد خرج من سكوته وهو ينذر بسحب بقية العالم معه، والأدهى والأمر أن الجاني هو الأنموذج الأمريكي بذاته، وتبني مبدأ تقليص سيطرة الدولة، أخفقت واشنطن في ضبط القطاع المالي على نحو واف وأفسحت المجال للحكومة لتلحق ضرراً بليغاً بباقي المجتمع... على أن الديمقراطية فقدت بريقها حتى قبل ذلك، فعندما

ثبت أن العراق لا يمتلك أسلحة دمار شامل التمسست إدارة بوش تبرير شن حرب على العراق يربطها ببرنامج حريات عريض، وسرعان ما أصبح نشر الديمقراطية هو السلاح الرئيس في الحرب على الإرهاب، وبدأ الخطاب الأميركي عند الكثيرين في مختلف أرجاء العالم أشبه بالمبرر الذي يسوغ تعزيز الهيمنة الأميركية.

إن الخيار الذي نواجهه اليوم يذهب إلى أبعد من خطوة الإنقاذ أو حملة الانتخابات الرئاسية، فالنموذج الأمريكي يقف على المحك على نحو مؤلم في وقت تبدو فيه النماذج الأخرى الصيني منها أو الروسي أكثر جاذبية. فوكوياما حاول أن يستدرك تناقضه فوقع في تناقض أكبر حينما رأى أن أمريكا قادرة على الخروج من الأزمة المالية الحالية فقد توقع أن العالم سيواجه انكماشاً اقتصادياً ولن يكون النموذج الروسي أو الصيني بديلاً للنموذج الأمريكي، واستشهد بالكساد الكبير في ثلاثينيات القرن المنصرم حيث استطاعت أمريكا الخروج منه بفضل قابلية نظامها للتكيف، ومرونة الشعب الأمريكي...!، فأين كلام فوكوياما الحالي من كلامه في كتابه نهاية التاريخ..؟ (يبدو لي _ أخيراً _ الجنس البشري كما لو كان قطاراً طويلاً من العربات الخشبية التي تجرها الجياد متجهاً إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الآباتشي (الهنود الحمر) فضل الطريق، والبعض الثالث أمهكته الرحلة الطويلة فقرر اختيار مكان وسط الصحراء للإقامة فيه وتنازل عن فكرة الوصول للمدينة، بينما من ضلوا الطريق راحوا يبحثون عن طرق بديلة للوصول للمدينة، وفي النهاية يجد الجميع

أنفسهم مجبرين على استخدام الطريق نفسه _ ولو عبر طرق فرعية مختلفة _ للوصول لغايتهم، وفعلاً تصل هذه العربات إلى المدينة في النهاية، وهذه العربات عند وصولها لا تختلف عن بعضها بعضاً إلا في شيء واحد... هو توقيت الوصول للمدينة.. في سرعة أو بطء وصولها إلى الديمقراطية الليبرالية.. ومن ثم نهاية رحلتها الطويلة... نهاية التاريخ).

لقد رأى (بوش الأب) عشية حربه على العراق أن العالم قد دخل في نظام عالمي جديد بقيادة أمريكا، وقد كانت حرب الخليج إيذاناً بنهاية المنظومة الاشتراكية، فالبرسترويكا التي أطلقها غورباتشوف كانت رصاصة الرحمة على الاتحاد السوفياتي فانحل عقده وتلاشى.

ويرى كثير من الباحثين في الشأن الأمريكي أن الواقع الجغرافي قد خدم أمريكا في جعلها بعيدة عن الغزوات، وأن الثروات الهائلة التي تمتلكها ساهمت بنموها الصناعي الهائل، وكذلك التجاري.. هذه الظروف دفعتها لأن تسود العالم لاسيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد برزت كقوة عسكرية حسمت المعركة لصالح الحلفاء واستخدمت السلاح الذري لأول مرة في تاريخ الحروب الحديثة، كذلك سيطرت على أوروبا اقتصادياً عبر مشروع مرشال.

وقد اقتسمت العالم بينها وبين عدوها الشيوعي حتى سقط جدار برلين عام ١٩٨٩م فكشف عورة المعسكر الاشتراكي الذي تداعى كأحجار الدومينو...! فقد استطاع الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريغان) أن يجعل الشيوعية في سباق تسلح لم تكن قادرة على تحمل نتائجه الاقتصادية الكارثية، ثم كانت حرب الخليج ١٩٩١م لتعلن تأسيس النظام العالمي الجديد الذي تقوده بنفسها، وبعد ذلك ضربت بلغراد وهي تعني نهاية الراديكالية داخل

أوروبا وحلفاء السوفييت أمس، وانتهى الأمر بتقسيم يوغسلافيا ومن ثم اختفاء هذه الدولة نهائياً بعد أن انفصلت صربيا عن الجبل الأسود.

وجاءت أحداث (١١ أيلول/سبتمبر) لتعلن أمريكا أن هذه الأحداث ستغير وجه العالم فأعلنت حربها ضد ما يسمى الإرهاب فغزت أفغانستان ومن ثم العراق، ورأت أن حربها طويلة قد تمتد لعقدين.

الآن أمريكا الغارقة في العراق وأفغانستان عسكرياً، والمصابة بزلزال مالي قد يكلفها قيادة العالم، تبحث عن حلول كانت تعدّها عيباً على الآخرين!!.. فهذا هي تذهب للتدخل في المصارف والشركات بعد أن كان شعارها (دعه يعمل دعه يمر)، وفي هذا الشأن كتب الفيلسوف البريطاني (جون غري) في صحيفة (الأوبزيرفر) يوم الأحد ٢٩ - ٩ - ٢٠٠٨ م تحت عنوان "لحظة الانكسار في سقوط قوة أميركا" ((إن ما نمر به من غليان في الأسواق العالمية هو أكثر من أزمة مالية، بل هو (تغيير جيوسياسي) تاريخي يعاد فيه تشكيل موازين القوى في العالم دون رجعة، ويعلن فيه انتهاء حقبة الهيمنة الأميركية التي تعود منذ الحرب العالمية الثانية، ويضيف: مع تأميم الولايات المتحدة لأجزاء حيوية من نظامها المالي، فإن نظام أميركا الخاص بالأسواق الحرة يدمر نفسه بنفسه في حين تبقى الدول التي احتفظت بسيطرتها على الأسواق في أمان)).

لقد أطلقها الرئيس الروسي (مدفيدف) علانية حينما هوت بورصة وول ستريت: لقد ولى زمن الهيمنة الأمريكية إلى غير رجعة....!

لا يعني نهاية النظام المالي الأمريكي انهيار اقتصاد دولة عظمى فحسب، بل هو نهاية إمبراطورية تسود العالم، وتتفرد بالقرار الدولي يعني نهاية العولمة ونهاية المشروع الأمريكي في العالم ولاسيما مشروعها المسمى بالشرق الأوسط

الكبير، وسقوط أخلاقي وقيمي (غوانتينامو وأبو غريب) وكذلك بروز قوى جديدة نأت بنفسها عن نصائح صندوق النقد الدولي (كالصين) وفي هذا المجال يقول الخبير الاقتصادي الأمريكي (جوزيف ستجليتزر) في كتابه ضحايا العولمة الصادر عام ٢٠٠٢م:

(إن كانت العولمة لم تنجح في تخفيف الفقر، فإنها لم تنجح أيضاً في تأمين الاستقرار، إن الأزمات في كل من آسيا وأمريكا الجنوبية هددت الاقتصادات والاستقرار في البلدان النامية كلها، هناك مخاوف من انتشار عدوى مالية حول العالم بحيث يؤدي انهيار العملة المتداولة في إحدى الأسواق الناشئة إلى انهيار العملات الأخرى بالمثل، ففي عامي ١٩٩٧-١٩٩٨م بدا لفترة ما "إن الأزمة الآسيوية تشكل تهديداً لكل الاقتصاد العالمي".

إن العولمة وإدخال اقتصاد السوق لم يحققا النتائج الموعودة في روسيا وأغلب الاقتصادات الأخرى، التي تقوم بعملية التحول من الشيوعية إلى اقتصاد السوق، لقد قال الغرب لهذه الدول: إن النظام الاقتصادي الجديد سيجلب لهم رخاءاً اقتصادياً غير مسبوق، وبدلاً من ذلك جلب لهم فقراً غير مسبوق...! لقد أثبت اقتصاد السوق من نواحٍ كثيرة بالنسبة لأغلب الناس أنه الأسوأ حتى مما تنبأ به زعماءهم الشيوعيون، إن التناقض بين التحول في روسيا الذي وضعت هندسته المؤسسات الاقتصادية الدولية، والتحول في الصين الذي وضعت الصين تصميمه بنفسها لا يمكن أن يكون أكبر من ذلك، فبينما كان إجمالي الناتج المحلي للصين عام ١٩٩٠م لا يمثل سوى ٦٠% من إجمالي الناتج المحلي لروسيا، انعكست هذه النسبة في نهاية عقد التسعينيات، ففي الوقت

الذي شهدت فيه روسيا زيادة غير مسبقة للفقر، شهدت فيه الصين انخفاضاً غير مسبوق للفقر..!).

لقد كانت مرحلة الرئيس الأمريكي (بيل كلنتون) مرحلة مهمة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فقد برزت العولمة كظاهرة اقتصادية تسمح لأمريكا أن تتسيد العالم بعد هزيمة الشيوعية، وهذا ما زاد الشعور لدى فوكوياما أن نظرية نهاية التاريخ صحيحة..! وتناسى أن عدوهم الشيوعية قد بشرت بذلك قبل حين بانتهاء العالم بمرحلة المشاع..! لكنه لم ينتبه إلى أن أمريكا تعتمد على الثالث المهلك (الطغيان والاستكبار والربا) وهذا مخالف للسنن الإلهية، وقد دفع الخيال (بفوكوياما) إلى أن النهاية ستكون بالليبرالية الأمريكية بعد أن استعرض آراء من سبقه ونقضها، لكن توقف أمام الإسلام قائلاً: (يبدو أنه من الممكن استثناء الإسلام _ مبدئياً على الأقل _ من هذا الحكم العام حول الأيدولوجيات المنافسة للديمقراطية، فالإسلام يشكل أيديولوجيا متجانسة ومنظمة، مثله في ذلك مثل الديمقراطية والشيوعية، مع دلالاته الخاصة في الأخلاق ومذهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية، وقد هُزم الإسلام في الواقع الديمقراطية الحرة في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي موجهاً تهديداً خطراً للممارسات التحررية حتى في البلاد التي لا تمثل قوة سياسية ذات بال، وقد شهدت نهاية الحرب الباردة تحدياً سافراً للغرب من قبل العراق الذي يشكل الدين الإسلامي عاملاً مهماً في تكوينه الأيديولوجي، وعلى الرغم من الحديث عن جاذبية الإسلام العالمية، إلا أن الحقيقة الواضحة والأكيدة وهي أن هذا الدين ليس له أي جاذبية خارج المناطق ذات الثقافة الإسلامية، فقد انتهت أيام الغزوات الثقافية الإسلامية، قد يكسب الإسلام أحياناً أتباعاً ساخطين على

أوضاع معينة، لكن لا رنين له لدى الشباب في برلين أو طوكيو أو موسكو مثلاً، وبينما يوجد حوالي بليون من البشر ذوي ثقافة إسلامية _ أي حوالي خمس سكان العالم _ إلا أنهم لا يستطيعون تحدي الديمقراطية الحرة الموجودة في بلادهم على المستوى الفكري أو النظري، وفي الواقع فالواضح أنه بات ممكناً اختراق العالم الإسلامي _ على المدى الطويل _ بالأفكار التحررية، لأن مثل هذه الأفكار قد جذبت العديد من المسلمين الأقوياء خلال القرن ونصف الماضيين، ويبدو أنه من أسباب إحياء الأصولية الإسلامية التهديد الذي أحست به هذه المجتمعات الإسلامية التقليدية بسبب اختراقها بالقيم والأفكار الغربية التحررية).

نظرة فوكوياما للإسلام مليئة بالتناقضات وإن ما مرّ عليه بكلمات تحتاج إلى وقفات لاسيما حين عدّ الإسلام أيديولوجية متجانسة ومنظمة مثله مثل الديمقراطية والشيوعية، وهذا فهم قاصر جداً فالإسلام ليس فكراً من وضع البشر حتى يقارن بأفكار البشر وأيديولوجياتهم المختلفة سواء كانت شيوعية أو ديمقراطية، ثم أضاف (مع دلالاته الخاصة في الأخلاق ومذهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية) فلم يبين ماهية تلك الأخلاق، والسياسة، والعدالة الاجتماعية.. والفكرة الأخيرة هي كلمة السر في عظمة الإسلام وقدرته على تحقيق العدالة الاجتماعية..!

وحين نظر إلى نسبة المسلمين في العالم رأى أن هذه النسبة على ضخامتها ليست ذات تأثير، وعدّ الثقافة الإسلامية التي سماها (غزواً) أنه ليس بإمكانها أن تجذب أنصاراً لها في العواصم الغربية والمتقدمة، وأن الذين يعلنون إسلامهم يعلنونه نتيجة حالة سخط من أوضاع معينة ولا ندري ما الذي رمى إليه بهذه

العبارة...؟ متجاهلاً أن الذين يعلنون إسلامهم من كبار العلماء والمفكرين الغربيين...!، ثم خلص إلى نتيجة أن الأقوياء كما أسماهم من المسلمين ينجذبون للنموذج الديمقراطي الليبرالي، وهنا يعني أن البقية الباقية ضعفاء وبالتالي يمكن اختراق المجتمعات الإسلامية ولو كان ذلك على المدى البعيد _ وهو لا يفرق بين ضعف المسلمين الحالي وقوة الدين الإسلامي _ متناسياً أن شعوباً مختلفة قد دخلت الإسلام من خلال معاملات وأخلاق التجار المسلمين ولا سيما في شرق آسيا، وزعم أن الانجذاب من هذه الفئة (الأقوياء) وسهولة الاختراق من قبل القيم والأفكار الغربية التحررية للمجتمعات الإسلامية قد ساهم في بروز الأصولية الإسلامية...!

فوكوياما المعتز بأمريكيتته تجاهل طغيان أمريكا بل برر للمهاجرين ما فعلوه بالسكان الأصليين كما ذكرنا آنفاً، وكذلك الاستكبار ومحاولة فرض الثقافة الأمريكية على الآخرين بالقوة، وهو ذهب إلى أبعد من هذا فقد رأى أن النموذج الأمريكي هو الأخير حتماً، وإن كان من متغير فسيكون طفيفاً جداً متناسياً حركة التاريخ وتغير الظروف طبقاً للحالة التي يمر بها الناس، وكذلك الحالة الاقتصادية الأمريكية القائمة على الربا كباقي العالم الغربي الغارق في المعاملات الربوية، وهذه الحالة انسحبت على دول العالم أجمع من خلال المصارف الربوية، وبمنظرة سريعة للحالة التي وصل إليها الإقتصاد الأمريكي القائم على مبدأ الحرية نجد أن (الإقتصاد الأمريكي فقد في يومي الإثنين والثلاثاء ٢٩-٣٠/٩/٢٠٠٨م فقط في (وول ستريت) تريليون دولار في صورة هبوط في قيمة الأوراق المالية المتداولة، وعمليات الإنقاذ في التجربة

الأمريكية والعالم تجاوزت حتى الآن رقماً غير مسبوق، وهو ثلاثة تريليونات دولار، اثنان منها في التجربة الأمريكية..!).

وقد قدّم الخبير الاقتصادي د. عبد الحميد الغزالي مجموعة من الحلول:

(١) وقف المضاربات، أي المقامرات، وبالذات التعامل في المشتقات، وهي الخيارات والمستقبليات والتحوّطات لتغيرات سعر الفائدة.

(٢) محاسبة المسؤولين عن الجهاز المصرفي بعامة والوحدات التي انهارت بخاصة.

(٣) تشديد رقابة السلطات النقدية، وعلى رأسها البنك المركزي، في ممارسة العمل المصرفي بعامة وضخ الائتمان بخاصة.

(٤) اعتماد السياسات المصرفية بحزم وصرامة، خاصةً في ما يتصل بإدارة السيولة والربحية وإدارة مخاطر الائتمان وإدارة كفاية رأس المال.

(٥) الاستمرار في ضخ سيولة في شرايين الاقتصاد، حتى لا تنهار أساسيات القاعدة الإنتاجية، وندخل في كساد عالمي عظيم.

(٦) أخيراً وليس آخراً.. التفكير الجاد من قبل المنظرين الغربيين وأصحاب القرار في دراسة تطبيق النظام الإسلامي البعيد عن سعر الفائدة الربوية، والقائم على معدل الربح كأداة لإدارة النشاط الاقتصادي المعاصر، الذي يستند على استثمار حقيقي لتوسيع القاعدة الإنتاجية، وليس على أساس استثمار مالي قوامه المضاربات، أي المقامرات والمغامرات والاستغلال والفساد.

لقد أثبتت التجارب أن نجاح تجربة ما لا يعني استمرارها، وبالتالي يمكن مراجعتها والاستفادة من تجارب أخرى لاسيما إذا كانت ذات بعد أخلاقي وقيمي، ومثال ذلك المصرفية الإسلامية وتحريم الربا، والعودة للمعادن النفيسة،

ولقد سبق (لديغول) أن طالب بالعودة للمعادن النفيسة وكذلك نظرية رئيس وزراء ماليزيا السابق (مهاتير محمد) في العودة للدينار الذهبي.

أمريكا التي سحبت الغطاء الذهبي عن الدولار منذ سبعينيات القرن المنصرم، وأدى ذلك إلى انخفاض سعر الدولار منذ عام ١٩٧٣م حتى هذا الوقت أربعين مرة...! إضافة للتضخم وأخيراً الغرق في حالة الكساد وانعدام ثقة المستهلك ...!

فهل لفوكوياما أن يعي عظمة الدين الإسلامي... وأنه ليس فكراً من وضع البشر.. وهو الذي بشر بنهاية التجارب الإنسانية بالتجربة الأمريكية...؟، وهل سيشهد بأم عينه نهاية أمريكا التي باتت وشيكة... وهي مسألة وقت ليس أكثر...؟!، وستذكر طويلاً أن النهاية كانت بدايتها بالتمدد الإمبراطوري وغزو بلدين مسلمين، وإن مفكري الاقتصاد الغربي بدأوا بالاستعانة بنظام المصرفية الإسلامية للخروج من الأزمة...! وأن نهاية أمريكا تكمن بداخلها لاسيما بالخلل الاجتماعي والشذوذ الجنسي، والزواج المثلي، وارتفاع نسبة الجريمة.

ملف العدد

آثار الاحتلال الأمريكي

للعراق

نظرة اقتصادية للاحتلال

الأمريكي للعراق

الأسباب . . . والنتائج

عبد الستار أحمد

نظرة اقتصادية للاحتلال الأمريكي للعراق الأسباب... والنتائج

عبد الستار أحمد

حين قررت الولايات المتحدة الأمريكية غزو العراق كانت هناك مجموعة من الأسباب الاستراتيجية، منها السياسية ومنها الأمنية ومنها الدينية ومنها الاقتصادية، منها ما أعلن عنها بشكل رسمي وعن طريق وسائل الإعلام، كما أعلن بوش الابن بأنه يقود حرباً صليبية بأمر الرب، ومنها ما لم يعلن عنها لغاية الآن، وقد أسهب الكثير من الباحثين والمفكرين والكتاب في إيضاح هذه الأسباب وكتبوا الكثير من الدراسات والبحوث والتقارير، حتى ألفت كتب كثيرة في ذلك.

فبالإضافة للضرورة التاريخية (من وجهة نظر أمريكية بحثة) لتواجد أمريكي طويل الأمد في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، وفي المنطقة العربية بشكل خاص، كان هناك سبب استراتيجي آخر في الجانب الأمني وهو الحفاظ على أمن إسرائيل، لأن العراق كان على مر التاريخ عقدة تاريخية حقيقة لإسرائيل، وثبت ذلك من خلال مواقف الجيش العراقي في معارك العرب ضد إسرائيل، كما إن الشعب العراقي شعب معبأ بشكل دائم ضد العدو الإسرائيلي المحتل للأراضي الفلسطينية، كما إن مواجهة الإسلام ذلك الخطر الداهم القديم الجديد في عقر داره سبباً استراتيجياً آخر من أسباب ذلك الغزو ولعله السبب الأهم في الموضوع، يضاف لكل ذلك السبب الاقتصادي المتمثل في ضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية الاقتصادية، وخاصة فيما يتعلق بموضوع

النفط لأن توفير مصادر الطاقة وديمومتها تعتبر من المصالح القومية الاستراتيجية الحيوية التي يعتبرونها من مستلزمات بقاء الدولة، على الرغم من إن بعض السياسيين والمفكرين لا يجدون أن النفط أحد أسباب الاحتلال الأمريكي للعراق من وجهة نظرهم، فلربما تأثر هؤلاء بما يروجه بعض مروجي السياسة الأمريكية ومنهم الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر) الذي سخر إبان تسلمه جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٢م خلال مؤتمر صحفي ممن سماهم "الحمقى" الذين يعتقدون أن سياسة أميركا تجاه العراق مبنية على المصالح النفطية، قائلاً: "يمكن شراء النفط بأسعار معقولة في حدود ٢٧ دولاراً للبرميل، وهذا أقل من التكلفة الضخمة التي يستدعيها احتياح العراق"، ووصف رئيس دائرة التخطيط في وزارة الخارجية الأميركية آنذاك (ريتشارد هاس) عما يقال عن وجود دوافع نفطية دفعت أميركا لاحتلال العراق: بأن هذه المقالات سخيفة (على حد تعبيره)، وبعد أن أصبح سعر النفط بعد خمس سنوات من الغزو الأمريكي للعراق أكثر من ١٤٠ دولاراً للبرميل الواحد، لا بد من توجيه سؤال بسيط لـ (كارتر) من هو الأحمق الآن؟، (تم تنزيل سعر النفط ضمن تداعيات الأزمة المالية العالمية الحالية بشكل متعمد ضمن سلسلة إجراءات حلحلة الأزمة).

لهذا كان لا بد لصناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية أخذ كل أنواع التدابير لضمان هذه المصلحة فهو أمر واجب بالنسبة لهم، وقد اتفق العديد من صناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية على أن النفط هو الحل السحري لكل المشاكل والتلكؤات الاقتصادية وغيرها التي تعصف بالولايات المتحدة منذ سنوات طوال، وفي هذه الدراسة المقتضبة سنسلط الضوء على هذا الجانب.

نبذة تاريخية

لم تكن أطماع الولايات المتحدة في نفط منطقة الخليج العربي حديثة عهد، بل كانت لها جذور تمتد لأكثر من مائة عام مضت، نظراً للأهمية السياسية والعسكرية والاقتصادية لدول الخليج العربي والعراق خاصة، كما لم تكن هذه أطماع أمريكا وحدها بل كانت لبريطانيا أيضاً التي كانت تسمى نفسها (العظمى) أطماع لا تقل شأنًا عن الولايات المتحدة الأمريكية وقد كان لها ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وخططت لإبقاء هذا النفوذ بشكل منفرد أو مشاركة مع الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية باعتبار بريطانيا دولة لها ثقلها السياسي والعسكري.

إلا إن الولايات المتحدة الأمريكية كما هو شأنها دائماً تحب أن تتفرد بهذه المصالح، فعلى الرغم من عقد اتفاقية (الخط الأحمر) عام ١٩٢٨م التي حددت نشاط جميع الشركات المساهمة الأمريكية في شركة نفط العراق ضمن السياسة التي ترتبها هذه الشركة، مما أغلق باب التنافس بين الشركات الأمريكية والشركات الأجنبية ومنها البريطانية بالذات في هذه المنطقة، إلا أن هذه الاتفاقية لم تمنع الشركات الأمريكية الأخرى غير المساهمة في شركة نفط العراق من الدخول إلى المنطقة، كما أن هناك مناطق أخرى مثل الكويت لم تشملها الاتفاقية، وبهذا فليس ثمة ما يحول دون دخول الشركات الأمريكية المساهمة في شركة نفط العراق وغير المساهمة إليها، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أول امتياز مستقل لشركة أمريكية في الخليج العربي تم إقراره في كانون الأول ١٩٢٨م حيث استطاعت شركة (ستاندرد كاليفورنيا) من الحصول على امتياز نفط البحرين، واستمر النزاع الاقتصادي الأمريكي _ البريطاني

بعد ذلك، وظهر تنازعهما للاستيلاء على نفط الموصل عام ١٩٣٢م وكذلك نفط البصرة عام ١٩٣٨م، واستطاعت بريطانيا لغاية أربعينيات القرن الماضي من إحكام قبضتها على مصالحها النفطية والاقتصادية في العراق والحد من تدخلات الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن، إلا أنها بعد هذا التاريخ اضطرت إلى نهج سياسة جديدة وهي سياسة المشاركة أمام الضغط والتسلط الأمريكي، وذلك من خلال إشراك المصالح الأميركية المساهمة في شركة نفط العراق لمواجهة المصالح الأميركية الجديدة غير الخاضعة لاتفاقية الخط الأحمر، فتم تشكيل (شركة امتيازات النفط المحدودة) كشركة تابعة لشركة نفط العراق لتتولى مهمة التصدي لنشاط الشركات الأميركية في الخليج العربي.

ولا يخفى أن السياسة البريطانية في العراق كانت تتذرع بهذه الحقيقة (وهي ازدواج المصالح البريطانية والأميركية في شركة محدودة) كحجة لمواجهة سياسة الباب المفتوح التي تطالب بها الولايات المتحدة الأمريكية باعتبار أن شركة نفط العراق تضم في إدارتها عدداً من المساهمين الأمريكيين.

وقد ظهر التفوق الأمريكي بشكل لا يقبل اللبس في المملكة العربية السعودية ونجاح الشركات الأمريكية في عام ١٩٣٣م في الحصول على نفط (الإحساء) الذي يُعدّ من بين أكبر مستودعات النفط في العالم، حيث تم استبعاد الشركات البريطانية عن ساحة التنافس، وبعد الحصول على امتياز الإحساء من قبل الأمريكان، واصلت الشركات الأمريكية لنشاطها واستثمارها بالمناطق المتبقية من المملكة العربية السعودية، ومع مرور الوقت وحدوث التغيرات السياسية في الوطن العربي حدثت بعد الأحداث الكبيرة في الموضوع الاقتصادي منها قيام العراق بتأميم شركات النفط العراقي عام

١٩٧٠م بما عرف بـ (تأميم النفط العراقي) ، ورفع العرب لأول مرة في تاريخهم شعار (النفط سلاح في المعركة) فقد قامت الدول العربية المنتجة للنفط بإقرار وتطبيق حظر نفطي بمنع تصدير النفط إلى الغرب بشكل عام الذي استمر من منتصف تشرين الأول ١٩٧٣م حتى منتصف آذار ١٩٧٤م، وقد اقتصر الأمر على الدول العربية وحدها وليس كل دول أوبك، وبالرغم من فسح المجال أمام العديد من أوجه التسرب للتغلب على هذا الحظر، فقد استخدمت بعض ناقلات البترول مستندات مزورة لتتجه مباشرة من الخليج العربي إلى الموانئ الأمريكية، في حين استخدمت ناقلات أخرى طرقاً ملتوية كان العرب على معرفة كاملة بها، ومع ذلك فإن هذا الجهد المقيد قد أوضح مدى إمكانية تعرض الولايات المتحدة الأمريكية لضغوط متجددة في هذا المجال، أمام هذا الخطر الجديد طلب رئيس اللجنة الفرعية الخاصة بالتحقيقات (لي هاملتون) من مجموعة باحثين في مكتبة الكونجرس برئاسة (توماس بروجان) دراسة في آب عام ١٩٧٥م حول الموضوع، قدمت اللجنة تقريرها إلى لجنة العلاقات الدولية وتتضمن الدراسة احتمال استخدام القوة العسكرية الأمريكية لاحتلال حقوق النفط الأجنبية في حالة الضرورة، كقضية جديدة، وهذه الدراسة تقدم منظوراً شاملاً لهذه القضية لتمكين الكونجرس من المساهمة على أساس وطيء في المداولات الرامية إلى التوصل إلى قرار فيما يتعلق بالرغبة في القيام بمثل هذا العمل العسكري وجدواه إذا ما لزم الأمر، ويشير التحليل الذي تنطوي عليه هذه الدراسة إلى أن قيام كل أو معظم الدول الأعضاء في منظمة "الأوبك" بفرض عقوبات مستمرة سيكون من شأنه إلحاق الاضطراب بأسلوب الحياة الأساسي للولايات المتحدة الأمريكية والأمن الأمريكي، لكنه

لن يعرض بقاء الولايات المتحدة للخطر على الإطلاق، إلا أنه على النقيض من ذلك يمكن أن يعرض المصالح الحيوية لحلفائنا إلى الخطر على وجه السرعة، وقد حددت الدراسة الآليات والأساليب التفصيلية التي من المفروض أن تتبع في عملية احتلال المنشآت النفطية عسكرياً وكما يلي:

- (١) الاستيلاء على المنشآت النفطية المطلوبة سليمة تماماً دون أن تمس.
- (٢) تأمين هذه المنشآت لأسابيع أو أشهر أو لسنوات.
- (٣) إصلاح المنشآت التي تعرضت للتدمير بسرعة.
- (٤) تشغيل كل المنشآت دون مساعدة دول الأوبك.
- (٥) ضمان المرور الآمن لإمدادات النفط والمنتجات البترولية.

الأهداف الاقتصادية لغزو العراق

لأن النفط يشكل ٥٠% من إجمالي إنتاج الطاقة في الولايات المتحدة، ولأنه المصدر الأساسي للطاقة في العالم، كما إنه عصب الاقتصاد العالمي، ولأن هذا النفط خارج نطاق سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية، صار من الضروري إعادة النظر في قضية السيطرة عليه وعلى أسعاره ليس في الولايات المتحدة فحسب بل في العالم، فإذا حدث نقص خطير في الطاقة في الولايات المتحدة نتيجة لأي نوع من الاضطرابات أو لخلافات اقتصادية تفرض نفسها مع دول غير صديقة، ستكون هناك ثلاث سبل محلية مترابطة متاحة لصناع القرار الأمريكيين، الأول: هو استخدام المخزون الاحتياطي النفطي لتعويض النقص، والثاني: زيادة الإنتاج الأمريكي من النفط، والثالث: خفض معدل الاستهلاك.

بالنسبة للسبيل الأول فإن أرقام المخزون الاستراتيجي النفطي متقلبة، فوزارة الدفاع تعلن عن مخزون متواضع (الحجم الحقيقي يبقى سراً)، أما المخزون المدني من النفط الخام فيمكن أن يكفي لتلبية الاحتياجات لمدة قصيرة جداً في حسابات الأزمات، في حين أن المنتجات النفطية المكررة يمكن أن تلي الطلب عليها لفترة أطول من ذلك، لكن من المرجح أن يوجه جزء جوهري منها إلى تلبية الاحتياجات العسكرية في حالة الطوارئ، وقد حدث هذا التحويل إلى الاستخدام في الأغراض العسكرية في ١٩٧٣م، أثناء الحظر النفطي العربي. بمقتضى قانون الإنتاج الخاص بالدفاع الصادر عام ١٩٥٠م، ونتيجة لذلك فإن التدابير قصيرة الأجل للحفاظ على الطاقة لا تستطيع على الأرجح أن تؤدي إلى انفراج كبير للأزمة، أما السبيل الثاني فإن خطوات زيادة الإنتاج الأمريكي من الطاقة لن تحقق سوى فوائد مباشرة ضئيلة، فالاحتياطي البترولي الأول المخصص للقوات البحرية، الموجود في تلال "أيلك" بولاية كاليفورنيا سيحتاج إلى وقت ليس بالقليل للشروع بالإنتاج، بينما يحتاج تنشيط الاحتياطي البترولي الرابع المخصص للقوات البحرية، الموجود في ألاسكا إلى مدة أطول لأن أرصده مازالت تحتاج إلى استكمال استكشافها وتطويرها، كما أن التدابير الفنية لزيادة إنتاج حقول النفط الأمريكية العاملة الآن ستكون بمثابة مشروعات تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تؤتي ثمارها، وعلى سبيل المثال فإن تطوير الجرف القاري سيستغرق سنوات طويلة، كما أن المخزون الإنتاجي النفطي الأمريكي بالأصل لا يتحمل الزيادة إذا ما عرفنا وفق آخر الدراسات الاستراتيجية إن آخر حفارة لاستخراج النفط ستوقف عام ٢٠١٥م في ولاية تكساس في الولايات المتحدة ما يعني لا مزيد من الاستكشافات النفطية.

أما السبيل الثالث المتمثل بخفض الاستهلاك باستخدام الوسائل الفنية فيمكن أن يخلق وفراً سريعاً وكبيراً يقرب من مليون برميل في اليوم، طبقاً لتقديرات المسؤولين في الإدارة الأمريكية ولكن المشاكل المترتبة على ذلك ستكون كبيرة جداً قد تؤثر على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في المستقبل.

ففي ولاية الرئيس (جيمي كارتر) تم وضع السياسة الأمريكية الجديدة وذلك في عام ١٩٧٨م وضعها كل من (هنري كيسنجر وبريجينسكي وبوش الأب ورامزي كلارك)، وقد خططت هذه السياسة للفترة من ١٩٧٨م ولغاية ٢٠٠٣م أي لمدة (٢٥) سنة، استناداً لما جاء بدراسة اللجنة الاقتصادية الصغرى والتي كان تقريرها مستنداً لنظرية عضوها (جيرمي ريفكن) حيث وضع (جيرمي) ما يجب أن يكون عليه الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد العالمي ومبررات بناء الاقتصاد الأمريكي الجديد مرتكزاً على نظرية الإنتروبي (دالة العشوائية)، وذكر في مبررات بناء الاقتصاد الأمريكي الجديد أن الشعب الأمريكي الذي عاش عقوداً في مجبوحة من العيش لا يمكنه أن يرى عماله اليوم يعيشون دون مستوى معيشتهم بسبب تهديد دول العالم الثالث لأمريكا، تتويجاً لهذه الاعتبارات والمبررات وضعت الاستراتيجية الأمريكية مخططاتها لتنفيذ أهدافها السياسية والاقتصادية وبرزت إحدى خططها للسيطرة على مناطق تواجد النفط في العالم الثالث تحديداً تحت اسم المصيدة عام ١٩٧٩م، وتنص هذه الخطة على إخضاع الدول ابتداءً من أفغانستان وباكستان والعراق وسوريا ولبنان والأردن والسعودية ومصر إلى النفوذ الأمريكي، هذا الإخضاع

يتم بإيجاد حكومات تتحالف مع الولايات المتحدة مهمتها حماية المصالح الأمريكية المتمثلة بتوفير مصدر الطاقة النفط.

وتهدف سياسة الطاقة الأمريكية، وذلك وفقاً إلى استراتيجية الرئيس (جورج بوش وتقرير تشيني) وسياسات الطاقة السابقة إلى تحقيق مجموعة من المكاسب للولايات المتحدة أهمها:

(١) تعزيز مصادر الطاقة

فحيث إن النفط هو المصدر الأساس والرئيس للطاقة، كان لابد للولايات المتحدة الأمريكية وفق هذا المفهوم أن تعزز الكميات اللازمة لضمان توفير الطاقة لفترة أطول، ما يعني وضع يدها على أكبر احتياطي في العالم المتمثل بالاحتياطي النفطي العراقي ففي حال استقرار الأوضاع بالعراق، فإن ذلك سيمكن الشركات الأمريكية من الوصول إلى ١١٢ مليار برميل من النفط وهو الاحتياطي المعلن للبلاد وبعضهم يشير إلى ٢٠٠ مليار برميل، ويعتبر أهم احتياطي عالمي، وهذا معناه أن السيطرة على العراق تعني الحصول على نحو ربع احتياطي العالم النفطي، دون أن نذكر الأرباح التي ستأتي للشركات النفطية الأمريكية بعد إنهاء مصالح الشركات النفطية الروسية والفرنسية والصينية التي كانت قائمة سابقاً.

(٢) تنويع مصادر واردات النفط

بسبب سياسات الولايات المتحدة الحمقاء، فإن علاقاتها مع دول العالم في تذبذب مستمر لعدم وجود ثوابت في سياستها وإن مصالحها ومصالح إسرائيل هي التي تحدد هذه العلاقات، فأصدقاء اليوم بالإمكان أن يكونوا أعداء الغد، لذلك كان لابد من تنويع المصادر النفطية بالنسبة لها، وبالفعل فإن فنزويلا

كانت إحدى مصادر النفط الخام الرئيسية للولايات المتحدة ولكنها اليوم في صراع ومشاكل معها وصلت لحد طرد السفراء ربما تتبعها قطيعة عامة سياسية واقتصادية.

(٣) التحكم بأسعار النفط العالمية

فهبوط أسعار النفط سيؤدي إلى انخفاض الإنتاج في المناطق عالية التكلفة، وسيقلل من عدد الدول المصدرة، وهنا لابد من التذكير بأن نفط بحر الشمال ونفط ألاسكا ما كان له أن يرى النور لولا ارتفاع الأسعار على إثر رفع أوبك الأسعار ثم المقاطعة النفطية العربية التي تلت ذلك الرفع في المقابل، خسرت الولايات المتحدة نحو ثلاثة ملايين برميل من إنتاجها اليومي بسبب انخفاض الأسعار في منتصف الثمانينيات وفي عامي ١٩٩٨م و ١٩٩٩م، ولابد من الإشارة هنا إلى أن معظم الدول الأوروبية واليابان والصين والهند تستورد نفط الخليج، ولحسن حظ أميركا أن هذه الدول وخاصة أوروبا واليابان لا تمتلك نفطاً صالحاً للاستهلاك في أراضيها، وعليه فإن قوتها الاقتصادية تركز بالأساس على النفط المستورد من الخارج وبالتحديد من الخليج، وسيطرة أميركا على هذا النفط سيعطيها المجال أكثر لتحديد كميات الإنتاج وكميات التوريد وأسعار النفط.. الخ، ما يجعل تطور الدول الأخرى ونموها الاقتصادي خاضعاً بطريقة غير مباشرة للإشراف الأمريكي.

(٤) سحب النفط من المناطق الغنية والمستقرة والآمنة

كان الاعتقاد لدى القيادة الأمريكية إن العراق بعد الغزو سيكون من المناطق الآمنة الخالصة الولاء للولايات المتحدة وستسيطر أمريكا على النفط العراقي بشكل مباشر (بعد تحرير العراق) بزعمهم والنفط العراقي معروف

بانخفاض كلف استخراجها، كما أن الولايات المتحدة أصبحت تعي تماماً أنها ليست وحدها على الساحة الدولية خاصة من الناحية الاقتصادية، وأن هناك دولاً عديدة تسعى للوصول إلى مستواها والتفوق عليها في المدى المنظور، وعليه كان لابد لواشنطن أن تعمل على إفشال وصول الآخرين إلى مستواها أو التحكم في عملية صعودهم إليها، فكان النفط الخليجي والعراقي هو الوسيلة.

(٥) تعزيز الخزين الاستراتيجي الأمريكي

حيث تقوم الولايات المتحدة منذ فترة طويلة بضخ النفط الوارد إليها من شتى المصادر في خزانات أرضية عملاقة لغرض رفع حجم الخزين الاستراتيجي الأمريكي، وقد كان بوش قد أصدر أوامره بعد هجمات ١١ أيلول بزيادة الاحتياطي الاستراتيجي من النفط بمعدل ١٠٠ ألف برميل يومياً، تحسباً لوقوع هجوم قد يستهدف المنشآت النفطية الأميركية، وإن مواقع تخزين ذلك الاحتياطي من الأسرار القومية التي لا ينبغي إفشاؤها تحت أي ظرف، إن الولايات المتحدة تقوم بتخزين ٧١١ مليون برميل من البترول في أربعة مواقع مختلفة وبما يوازي إمداد شهرين كاملين وتحمل هذه الكمية وفق هذا الترتيب اسمها المعروف رسمياً (الاحتياطي الاستراتيجي النفطي).

إن هذا الاحتياطي الاستراتيجي ليس مجرد مؤسسة ظاهرة للعيان بقدر ما أن هذه الكميات النفطية المخزونة مودعة في مستودعات تقع على عمق آلاف الأقدام تحت الأرض ومحاطة بسيجات من المواد الملحية ومخفية عن الأنظار بل إن الصور المحددة لها اختفت، أو أزيلت مؤخراً وبالعهد من مواقع شاشات

الحواشيب، وقد تم إحاطتها بتعقيم كبير من السرية في ظل مخاوف من احتمال أن يصبح الاحتياطي الاستراتيجي نفسه هدفاً للإرهابيين.

(٦) مذكرة التفاهم الأمريكية - الإسرائيلية

في عام ١٩٧٥م وقعت الولايات المتحدة مذكرة تفاهم مع إسرائيل، ومن ضمن ما جاء في هذه المذكرة ضمان الولايات المتحدة لكل احتياجات إسرائيل النفطية في حال حدوث أزمة، وهذه المذكرة تجدد كل خمس سنوات وتلتزم الولايات المتحدة بموجها إنشاء وتخزين احتياطي استراتيجي إضافي لإسرائيل بقيمة تعادل ثلاثة مليارات دولار عام ٢٠٠٢م، فلابد من توفير مصادر لهذا الاتفاق.

(٧) ضمان عدم استخدام النفط كسلاح في المعركة مستقبلاً

سواء ضد الولايات المتحدة أو إسرائيل وخاصة إن العراق كان عنصر الدفع بهذا الموضوع أبان حرب تشرين عام ١٩٧٣م.

تداعيات الغزو الاقتصادية

عندما احتلت قوات الولايات المتحدة الأمريكية بغداد، انتعشت حالة الأسواق الاقتصادية الأمريكية بسبب تلك الدفعة من التفاؤل لمستقبل الحرب في العراق، فالنهاية السريعة للحرب كانت جيدة للاقتصاد الأمريكي، وكان الأمر يبدو للوهلة الأولى بهذا المنطق، ولكن المتبعين للوضع السياسي العالمي يقرأون الأمر برؤيا أخرى مختلفة بعيداً عن الأحلام الوردية التي وضعت أسسها في خبايا البيت الأبيض، فقد ذكر (جوزف ستيجيليتز) الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد و(ليندا بيلمس) مؤلفا كتاب: (حرب الثلاثة تريليون دولار)

قالا: (إن حرب العراق سوف تكلف الولايات المتحدة ثلاثة تريليون دولار على الأقل، ومن المحتمل أن تصل إلى خمسة تريليون دولار)^(١).

والآن وبعد مرور أكثر من خمس سنوات على دخول القوات الأمريكية ومن معها العراق فإن الكلفة المعلنة للحرب لغاية الآن ٥٠٠ بليون دولار أمريكي، (على الرغم من إن الرقم الحقيقي أكبر من هذا بكثير) وحتى لو سلمنا لهذه الأرقام على إنها صحيحة، فإنها أرقام حري بمن يهمله الأمر التوقف عندها طويلاً.

والحقيقة أنه ما إن حطت القوات الأمريكية رحالها في بغداد كان هذا هو الإسفين الأول في نعشها، حين انطلقت أول شرارة للمقاومة العراقية مباشرة مع بداية الاحتلال وبدأت قصة الخسائر المادية والبشرية والمرتبطة بالجانب الاقتصادي سواء شاءت أمريكا أم أبت، فالجيش المقاتل بحاجة إلى رواتب ونفقات يومية وتجهيزات عسكرية ومدنية وطبية ومعدات وصيانة لهذه المعدات ووقود.... الخ، ناهيك عن الوحدات الكبيرة جداً التي تقدم الدعم اللوجستي بكل أنواعه والتي لا تقل في حجم إنفاقها عن الوحدات المقاتلة وكذلك الإنفاق في أبواب تجنيد مليشيات ضد المقاومة وتسليحها وتخصيص مرتبات ومكافآت لها وكذلك حجم الإنفاق الهائل لتعزيز القوات الأمريكية وغير الأمريكية في أفغانستان التي لا تقل شأنًا عن الوضع في العراق، ولا بد من الإشارة إلى أبواب الإنفاق الأخرى غير المبررة في العالم من دعم كل قوة معارضة في العالم سواء أكانت على حق أم لا من أجل زعزعة الاستقرار في

(١) (التريليون = ١٠٠٠ بليون و البليون = ١٠٠٠ مليون)

دول العالم كافة، هذه الإنفاقات كلها تتحول مع الوقت إلى عقد مريرة صعبة الحل في الاقتصاد الأمريكي وقد بدأ الاقتصاد الأمريكي بالترنح منذ عام ٢٠٠٣م ناهيك عن الخسائر الكبيرة الناتجة عن ضربات المقاومة العراقية التي صارت شوكة في خاصرة الاقتصاد الأمريكي.

ويرى الكثيرون أن استمرار الحرب في العراق وأفغانستان واشتداد الضربات الموجهة من قبل المقاومة الشعبية في هذين البلدين على القوات الأمريكية من شأنها أن تزيد من تعقيد الوضع الاقتصادي، كما ولدت الحرب ضد العراق وأفغانستان شكوكاً كثيرة أدت إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتراجع أسواق الأسهم وانحسار فرص العمل، ولو أردنا أمثلة على ذلك، فقد قالت مؤسسة (كنتري وايد) كبرى مؤسسات القروض العقارية في الولايات المتحدة إنها تعتزم خفض وظائفها بواقع (١٢ ألف وظيفة) لوحدها أي نحو خمس العاملين لديها لمواجهة الخسائر الناجمة عن أزمة الرهن العقارية في البلاد، أما مجموع من فقدوا وظائفهم لهذا العام ٢٠٠٨م فيتجاوز الربع مليون شخص، كما انخفض الدولار إلى أدنى مستوى له منذ ١٥ سنة مقابل العملات الأخرى، فعلى سبيل المثال وليس الحصر كانت قيمة الدولار قبل أربع سنوات قريبة جداً من قيمة (اليورو الأوربي) أما الآن فقد ازدادت قيمة (اليورو) بحدود ٥٠% أمام الدولار الأمريكي، (انخفض اليورو قليلاً أثناء الأزمة المالية الأخيرة) ولا يمكن إغفال ما تسببه الأعاصير التي تضرب الولايات المتحدة بشكل مستمر من إضرار بالاقتصاد الأمريكي تبلغ أحياناً عشرات المليارات من الدولارات وما تسببه من إيقاف المنشآت الاقتصادية وخاصة النفطية منها.

وعلى الرغم من مناورة الولايات المتحدة الأمريكية في زيادة أسعار النفط الخام لتصل أكثر من ١٠٠ دولار للبرميل الواحد في بعض الأحيان، لزيادة دخلها ورفع قيمة وارداتها المالية، إلا إن ذلك لم يسعف الحالة على الإطلاق بل على العكس، حيث تضاعف عجز الميزانية الأمريكية ثلاث مرات خلال السنة المالية ٢٠٠٨م، ووصل إلى ٤٥٥ مليار دولار وهو أعلى رقم يصل إليه عجز الميزانية على الإطلاق، علماً أن العجز في الميزانية الأمريكية كان يتراوح بين (٣٠٠-٤٠٠) مليار دولار سنوياً للأعوام ٢٠٠٣م _ ٢٠٠٧م وهي سنوات الحرب، إضافة إلى موضوع العجز التجاري الأمريكي فإن زيادة أسعار النفط في العالم أدى إلى الزيادة في أسعار المشتقات النفطية وبالتالي الزيادة في أسعار النقل والإنتاج والسلع كافة مما يعني زيادة التضخم في العالم بشكل عام مع بقاء دخل المواطنين سواء في العالم العربي أو الأوربي على حاله أو زيادته بشكل لا يوافق حجم التضخم الحاصل مما ولد مشاكل شعبية هائلة وكساد هائل في السوق الاقتصادي على مستوى العالم.

أمام هذه التداعيات الخطيرة في الاقتصاد الأمريكي سعت الولايات المتحدة إلى التكتيم الإعلامي على الموضوع وتقديم حزمة من المحاولات لإسعاف الحالة المتردية بعيداً عن الإعلان عنها في وسائل الإعلام المحلية والعالمية، إلا أن ذلك لا يمكن أن يستمر على الدوام، حتى انفجرت الفقاعة بشكل واضح للعيان. بما يعرف بـ (أزمة العقارات) أو ما تعرف بأزمة (الانكماش الائتماني) وقد أطلق البعض عليها (تسونامي الاقتصاد الأمريكي)، التي هزت الاقتصاد الأمريكي والغربي كذلك، ولا بد هنا من الاستدلال بتصريح لأحد حلفاء الولايات المتحدة هو وزير المالية الألماني (شتاينبروك) عندما وصف التدمير الأمريكي

للنظام المالي العالمي بقوله: (إن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية الأزمة المالية العالمية الراهنة، وقال إنها ستخلف آثاراً عميقة، وستحدث تحولات في النظام المالي العالمي، وقال (شتاينبروك) في بيان حكومي أمام البرلمان الألماني: (العالم بعد الأزمة لن يكون كما كان قبلها) مشيراً إلى فقدان الولايات المتحدة صفتها كقوة خارقة في النظام المالي العالمي.

وألقي (شتاينبروك) باللوم في الأزمة على عاتق واشنطن وحدها فيما وصفها بحملة (إنغلوساكسونية) لتحقيق أرباح كبيرة ومكافآت هائلة للمصرفيين وكبار مديري الشركات.

إن الاقتصاد الأمريكي في خطر حقيقي وهذا المقال ليس خيلاً من بنيات أفكارنا بل هو صرخة أطلقها متوسلاً بوش الابن حين قال ولأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة: (اقتصادنا برمته في خطر) وذلك في أيلول ٢٠٠٨م، فلا بد من النظر لحجم الكارثة التي تحل بالاقتصاد الأمريكي مما يحذو برئيسها ليدلي بهذا التصريح الخطير، ولا بد من الإشارة إلى بعض النماذج لما يحدث داخل الولايات المتحدة، ومن ذلك اضطراب الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي (البنك المركزي) عن حزمة من الإجراءات لإنقاذ مجموعة التأمين الأمريكية (أمريكان إنترناشونال جروب/إيه. آي. جي)، وكشف عن أنه سيقدم قرضاً بقيمة ٨٥ مليار دولار للمجموعة مقابل سيطرته على حوالي ٨٠% منها.

إن تدخل البنك المركزي الأمريكي يعني فشل كل السبل لحل أو حلحلة هذه الأزمة إلا بهذه الطريقة، وبنفس الوقت يعني انقلاباً كبيراً على مفهوم الرأسمالية ونظرية الاقتصاد الحر التي تنتهجها الولايات المتحدة وهو مفهوم اشتراكي بحث حين تتدخل الدولة لإسعاف حالة في القطاع الخاص، وهذه

الصورة إن دلت على شيء فتدل على حجم الخطر الكبير، كما أعلن بنك (ليمان براذرز)، وهو رابع أكبر مصرف استثماري في الولايات المتحدة إفلاسه وطلب من الجهات المختصة اتخاذ إجراءات طارئة لحمايته من الانهيار التام، وذلك وسط تصاعد حدة الأزمة المالية التي يشهدها الاقتصاد العالمي، وجاءت خطوة المصرف بعد تعرضه لخسائر بلغت مليارات الدولارات نجمت عن تعاملاته في سوق الإقراض العقاري في البلاد.

وتداعيات الانهيار الاقتصادي وأزمة البنوك لم تتوقف عند الولايات المتحدة وحدها، بل دبّ الخطر لئال البنوك الغربية أيضاً وخاصة في بريطانيا حليفة وشريكة أمريكا الدائمة فمنها بنك (لويدز) البريطاني الذي توصل إلى اتفاق اندماج مع مجموعة (أتش بي أو أس) في اتفاق بقيمة ١٢ مليار جنيه إسترليني لكي ينقذ هذه المجموعة من الانهيار، وتعني هذه الخطوة قيام كيان مصرفي كبير جداً يتبعه قرابة ثلث المدخرات والقروض العقارية في بريطانيا بقيمة ٣٠ مليار جنيه إسترليني من أجل مواجهة الأزمات المالية الحالية وكذلك المتوقعة في المستقبل، وتعد مجموعة (أتش بي أو أس) أكبر كيان للإقراض العقاري في بريطانيا بنسبة ٢٠% من السوق بينما يحتل (لويدز) المركز الرابع في هذا المجال بنسبة ٨%، أما في ألمانيا فقد توقع مصرف (آي كي بي إنداستري) الألماني خسارة بين ستمائة وسبعمائة مليون يورو (بحدود ٩٥٠ مليون دولار) خلال العام المالي الحالي بسبب تأثير أزمة خسائر القروض على الرغم أن الحكومة الألمانية قدمت مساعدات للبنك الشهر الماضي لمساعدته في تجاوز هذه الأزمة التي جعلته على وشك الانهيار.

وكما اعترف من قبله بوش بخطورة الوضع الاقتصادي الأمريكي فقد تابعة وزير المالية البريطاني (اليستر دارلينج) باعترافه (بأن بلاده تواجه أسوأ أزمة اقتصادية خلال ستين عاماً) وأضاف في لقاء مع صحيفة (الجارديان): إن التراجع الاقتصادي سيكون أكثر حدة واستمرارية مما يخشاه معظم الناس، وجاءت تصريحات وزير المالية البريطاني بعد حزمة من الأخبار الاقتصادية السيئة غير المنقطعة، حيث هبطت أسعار المنازل إلى أدنى مستوى لها منذ ١٨ عاماً، وتشير أحدث الإحصائيات في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن مايقارب من ستة ملايين مواطن أمريكي فقدوا وظائفهم في ولاية الرئيس بوش الابن فضلاً عن أن ستة ملايين عائلة قد هبطت من الطبقة الوسطى إلى الطبقة الفقيرة.

أمام هذه التداعيات الخطيرة في الجانب الاقتصادي بدأ المعنيون بالشأن الاقتصادي العالمي بإعلان صيحات الإنذار من خطورة الموضوع وإمكانية تفاقم الوضع ومن ذلك تحذير مدير صندوق النقد الدولي في أيلول ٢٠٠٨م من أن الأزمة المالية سيكون لها نتائج طويلة الأجل على الاقتصاد العالمي، وقال: إن الاقتصاد العالمي سيواجه كساداً طويلاً الأجل، وحذر مدير صندوق النقد الدولي الحكومات الأوروبية من التوسع في الإنفاق العام بشكل يؤدي إلى زيادة الديون العامة لأنه من الخطأ (إضافة ديون جديدة إلى الديون القديمة) لمواجهة الأزمة.

وبما أن الاقتصاد يرتبط ارتباطاً مباشراً بالسياسة فهذا يعني أن تقلبات سياسية تحدث أيضاً، فلقد بدأت العديد من الدول بتغيير مواقفها السياسية حين رأت أن الفرصة سانحة وأن الولايات المتحدة الأمريكية ليس بالصورة التي

ترسمها للعالم، فبدأت بعض الدول من التخلص من الدوران في مدارات الولايات الأمريكية ومثال ذلك (فنزويلا) التي كانت من كبار مصدري النفط للولايات المتحدة، فقد بلغ الحال إلى مرحلة طرد السفراء من الدولتين، وكذلك ما أقدمت عليه كوريا الشمالية من أنها ستعود لتكمل برنامجها النووي بعيداً عن تسلط الولايات المتحدة و فرق التفتيش فضلاً عن الموقف الإيراني المعادي علناً للولايات الأمريكية وتدخلها بشكل ملفت للنظر في العراق سواء في الجانب السياسي أو الأمني أو الاقتصادي، بل لابد من القول بفصيح العبارة: إن المستفيد الأول اقتصادياً من الاحتلال الأمريكي للعراق هي إيران وغيرها من المواقف التي تؤثر بشكل مباشر في الاقتصاد الأمريكي والعالمي ولأول مرة في تاريخها دعت الدول الأوروبية الأربع الكبرى (فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا) الأعضاء في مجموعة الثماني إلى "إعادة تشكيل النظام العالمي أسرع وقت" وكذلك "إعادة النظر في قواعد الرأسمالية المالية"، وذلك في قمة عُقدت في باريس في تشرين الأول ٢٠٠٨م، أمام هذه التحديات الخطيرة اضطرت الولايات المتحدة لعمل خطة من شأنها أن تضخ ٧٠٠ مليار دولار لتجاوز الحالة ومنع الانهيار الاقتصادي، كما ضخت اليابان مئات المليارات وألمانيا وغيرهما من دول العالم، إن ضخ هذه الكتلة الكبيرة من السيولة سيعاني منها المواطن الأمريكي بسبب ما سيحصل من تبعات التضخم الناتجة عن ضخ سيولة عالية في زيادة التضخم وما يتبعه من كساد وكذلك سيعاني المواطن الأمريكي من عقدة تسديد الضرائب التي ستقوم الدولة بتعويضها لرغد الخزينة المركزية مرة أخرى ناهيك عن التزايد الهائل في البطالة، حيث ذكرت وزارة

العمل الأمريكية في آخر إحصائية رسمية لها إن عدد العاطلين في الولايات المتحدة هذا العام بلغ أكثر من ربع مليون عاطل كما ذكرنا!.

وتوسعت الأزمة وتمددت ولم تقف عند حدود الولايات المتحدة بل وصلت أوروبا وآسيا والمنطقة العربية وأتبع سياسة ضخ السيولة، فأوروبا ضخت مئات الملايين واليابان تضخ عشرات المليارات، وهذه الإجراءات ليس حلاً بالطبع بل مخدراً مؤقتاً لأن البنوك الكبرى أنفقت رؤوس أموالها كقروض عقارية بشكل مستمر لسنوات طويلة مما أدى إلى ارتفاع غير حقيقي في أسعار العقارات بلغ في بعض الأحيان ١٠٠%، أمام هذه الحقيقة فإن استرداد رؤوس الأموال أصبح أمراً أشبه بالمستحيل بل هو المستحيل بعينه لهذا فإن الأموال ستسجل خسائر حقيقية.

وقد كشفت آخر الدراسات وأحدثها في الولايات المتحدة أن الأزمة التي تعصف بالاقتصاد الأمريكي لا تؤثر على "وول ستريت" دون سواه، بل الشريحة العظمى من الأمريكيين، وأظهر المسح السنوي الذي أجرته (جمعية علم النفس الأمريكية) أن نحو ٨٠% من الأمريكيين يعانون من الإجهاد النفسي قلقاً على أوضاعهم المالية الشخصية والاقتصاد عموماً، وأكدت الرئيسة التنفيذية للجمعية أن أبرز أسباب الضغوط النفسية خلال الأعوام السابقة، تمثلت في الأوضاع المالية الشخصية والعمل، بالإضافة إلى القضايا المتعلقة بتنشئة الأطفال، وأردفت: "هذا العام القلق على صعيدي المال والاقتصاد قفز ليحتل المرتبة الأولى، وإنما خلال خبرتها الممتدة على مدى ٣٠ عاماً، لم يكن هذا في سلم الأولويات أو على رأس قائمة الشكاوى".

وقد شمل المسح الذي أجري خلال الفترة من نيسان إلى أيلول ٢٠٠٨م، قرابة ٧ آلاف أمريكي، وخلال فترة المسح التي امتدت لفترة خمسة أشهر قفز الهلع على الاقتصاد من ٦٦% إلى ٨٠%، وأعرب نصف من شملهم الاستطلاع عن تزايد هلعهم بشأن قدراتهم على تزويد أسرهم بأبسط احتياجات الحياة، فيما تخوف أكثر من النصف أي ٥٦% من مخاوف بشأن الاستقرار المهني وفي دراسة أخرى أعرب أكثر من ٥٠% من الأمريكيين أن القادة الأمريكيون هم المسؤولون بالدرجة الأساس عن كل ما حصل وفي كل الجوانب.

وُترجمت المخاوف الأخيرة في واقع الحال إلى إنتاجية أقل في العمل جراء الهلع على الراتب وحجم العمل الهائل فضلاً عن الفزع حول مدى عدم تأثر الوظيفة، وبينت الدراسة أن النساء أكثر قلقاً من الرجال فيما يتعلق بالاقتصاد، والمدخرات الشخصية، والتكلفة المعيشية واستقرار الوظيفة، وجاء في المسح: "تراجع حال الاقتصاد القومي يستنزف المواطنين بدنياً ونفسياً، والنساء هن من يتحملن الشق الأكبر من الإجهاد الاقتصادي، وعزت (باربرا غولد) نائب رئيس "معهد أبحاث سياسة المرأة" كون النساء يشعرن بأنهن أقل أماناً من الناحية الاقتصادية عن الرجال، وأضافت: "النساء يقلقن أكثر بشأن مدى الأمان الاقتصادي وهن الأكثر ترجيحاً لأن يعانين الفقر عند التقدم في السن من الرجال"، وأدى تراكم الضغوط بـ ٦٠% من المستطلعين للإفضاء عن مشاعر الغضب والتوتر التي تتناهم، وأعرب ٥٦% عن إحساسهم بالإرهاق، فيما أشارت شريحة أخرى (تقريباً ٥٢%) إلى أن القلق يحرمها النوم طوال الليل، وتحدث ٤٧% عن إصابتهم بنوبات صداع، و ٣٥% عن اضطرابات معوية، ويعاني ٣٥% من توتر عضلي جراء الإرهاق النفسي.. من

أجل كل هذا عبرت الجماهير المكبوتة في أمريكا والتي دفعت من جيها ومن عمرها ضريبة أخطاء بوش ومساعديه، فقد عبرت عن ذلك في الانتخابات الرئاسية الأخيرة في تشرين الثاني ٢٠٠٨م، حين قالت كلمتها برفض سياسة الحروب والخسائر العسكرية والاقتصادية التي ينتهجها الجمهوريون بشكل عام وبوش بشكل خاص، وأدلت بأصواتها بشكل ملفت للنظر لسياسة التغيير التي وعد بها أوباما.

وفي أول مؤتمر صحفي لـ (أوباما) الرئيس الأمريكي الجديد، أكد هذه الحقائق حين قال إن هناك أكثر من ١٠ ملايين أمريكي عاطل عن العمل (وهو ما يعادل ٦,٥% من المجتمع الأمريكي) وإن إصلاح الاقتصاد لن يكون بالأمر الهين.

لقد شوهه الآلاف ممن كانوا في طريقهم للانتخابات في عمليات استطلاع الرأي يُسألون من قبل الصحافة، من ستنخبون: فكانوا يجيبون بلا تردد بأنهم سينخبون (أوباما) من أجل التغيير وكانوا يقولون: حرب خاسرة واقتصاد منهيار فلم لا ننتخب (أوباما)؟.

الخلاصة: يتضح لنا من خلال ما تم استعراضه أنه كان وما زال للولايات المتحدة الأمريكية مطاعم اقتصادية كبيرة في العراق وفي المنطقة، وقد اتبعت لتنفيذ مآربها أساليب وطرقاً غير مشروعة ومخالفة لكل القيم والأعراف الإنسانية، أدت بها إلى ما آلت إليه الأمور من أسوأ الأوضاع، وأثبتت لنا الأيام أنه (لا يصح إلا الصحيح)، فالظالم له نهاية ونهاية الظلم سوداء، والاقتصاد الرأسمالي مبني على وهم لأنه خالف السنن الكونية الإلهية، فالربا نظام ماحق وهالك، وهو أساس الاقتصاد الرأسمالي، وجعل الأموال بيد فئة متنفذة من

الرأسماليين والمحتكرين ليدلوا الناس ويتحكموا بمصائرهم، مخالفة وتحدياً لله سبحانه وتعالى، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الحشر من الآية (٧)، وعلى الرغم من كل ما تفعله أمريكا ومعها الدول المنضوية تحت لوائها من إجراءات فإنها سوف لن تنفع، فنراها ساعة ترفع أسعار النفط وأخرى تخفضه وبنسب لا تتوافق مع المتغيرات الاقتصادية، ونراها ساعة ترفع الدولار أمام بقية العملات وأخرى تخفضه، كما قامت بتخفيض كمية النفط المصدر في أوبك بمقدار مليون ونصف المليون برميل يومياً، فمحاولات الولايات المتحدة الأمريكية من ضخ العملة وتقليل سعر النفط الخام والتلاعب بالعملات قابلها الركود الاقتصادي وتسريح مئات الآلاف من المواطنين من وظائفهم والتضخم وفقدان الآلاف لمنازلهم ومشاكل اقتصادية لا حصر لها، وإن ما أصيبت به من ضرر لا يمكن السكوت عنه ولا تلافيه بسنة وستين وثلاث، بل هناك خسائر لا يمكن استرجاعها بأي ثمن، وبغض النظر عما ستؤول إليه الأمور من سوء أو نجاح فإن الاقتصاد الأمريكي مع بقاء هذه السياسات العامة هو اقتصاد هالك لا محالة، ومهما أنفقت ومهما حاولت سوف لن تجني سوى المزيد من الخسائر والخيبة، لأن الله عز وجل قد توعدهم بذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيَفْقُوْنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) الأنفال (٣٦).

آثار الحروب والاحتلال

على اللغة العربية

(العراق نموذجا)

د. أحمد قاسم كسار/ ماليزيا

آثار الحروب والاحتلال على اللغة العربية العراق نموذجاً

د. أحمد قاسم كسار^(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،
وبعد:

فليس من شك لأثر العربية في ثقافة المسلمين وعلاقة ذلك بالبناء الحضاري،
ومن صروف الحياة موضوع الحروب والاحتلال، وللتعرف على ذلك وتحليل
مخلفات هذا الموضوع ورواسبه على اللغة العربية اخترت هذا العنوان.
واخترت العراق _ بلدي الحبيب _ نموذجاً لأسباب من أهمها أنه خير عينة
للدراية والبحث؛ لأنه يمثل ثقل اللغة العربية بمدارسها وعلمائها وتصانيفها
وطلبة علمها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد شهد هذا البلد أنواع
الحروب، ودخلت فيه أشكال الاحتلال، وشهدت أرضه معارك عدّة،
وكانت اللغة العربية في ذلك كله لها حضور ووجود، وتأثر وتأثير، وهذا من
أقوى الأدلة على حيوية لغتنا، وقدراتها على التعايش في مختلف الظروف
والأحوال.

ومن ثمّ فإنّ البحث فيه دلالة مفهوم المخالفة التي تعكس صورة في أبسط
معانيها أنّ الأمن والأمان والاستقرار والتمكين وغيرها من مفردات العيش

^(١) محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية دار الرضوان الإسلامية في ماليزيا، وباحث عراقي له عدد
من المشاركات البحثية في الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية، وللتواصل مع الباحث على البريد

الالكتروني: Dr.Ahmad77@YAHOO.COM

الرغيد بكل ألوان السلام عامل من الأهمية بمكان لتطور وازدهار اللغة العربية تعلماً وتعليماً، وبالمقابل فإن الحروب والاحتلال والاقتتال والعنف والفوضى والمشاكل المماثلة لهذه عوامل لا تخفى آثارها السيئة على تدهور مستوى اللغة العربية وضعفها واضمحلال إنتاجها العلمي والمعرفي المساهم في البناء الحضاري للأمم، ومن رؤية أخرى أقول إن ثقافة المحتل ومدى تخضر العدو يعكس آثاره سلباً أو إيجاباً على اللغة العربية من حيث الاهتمام والتطوير أو الطمس والتدمير، كما وإن العراق بلد تعايشت فيه اللغات بكل سلام مع العربية، إلا أنها في أوقات يشتد الصراع الحضاري والثقافي بينها فيكون أكلها في ساعات التفاعل طيباً وفي ساعات التصادم علقماً.

إنني على اعتقاد قريب من اليقين أن اللغة العربية في تاريخها تشكل لبنة من الأهمية بمكان في صرح حضارة الأمة الإسلامية وكيانها في مواجهة التحديات من جهة، وفي البناء الحضاري من جهة أخرى، وهذا ما سنجده رأي العين في بلاد الرافدين.

أعان الله لغتنا، وحفظها كما حفظ كتابه الكريم، وسلّمها لنا، وسلّمنا لها، وجعل جميع المسلمين من أهلها إن لم يكن نسباً فلساناً، وحرر عراقنا وجعله بلداً آمناً مستقلاً مستقراً وسائر بلاد المسلمين، آمين ..

التمهيد: وصف البحث:

أهداف البحث

(١) الكشف عن حقب تاريخية ماضية، والتحقيق في أحداث واقعية جارية، كيفية تعامل العدو المحارب والمحتل الغازي الأجنبي مع اللغة العربية في بلاد العرب والمسلمين.

(٢) التعرف على مدى تأثير وتأثير اللغة العربية في ظل الحروب والاحتلال، ومدى انعكاس ذلك على ثقافة المسلمين، وتقويم لأداء إسهامات اللغة في البناء الحضاري

للأمة الإسلامية في تلك الأوضاع.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في جرأة طرحه لهذا الموضوع، فضلاً عن حداثة، وكونه غير مسبوق بالبحث المنهجي العلمي من قبل، وكذلك دوره في تعريف الوسط العلمي بضرورة المحافظة على اللغة العربية في زمن الهجمات العسكرية والعلاقات السياسية والغزوات الفكرية التي تتعرض لها أمتنا الإسلامية، والقيام بدور لغوي رائد للدفاع عن لغة القرآن الكريم والمحافظة عليها؛ لأنها لسان حضارتنا الإسلامية ورمز هويتنا وانتمائنا لهذا الدين.

أسئلة البحث

يحاول البحث أن يجيب عن الأسئلة الآتية:

السؤال الأول: هل تتأثر اللغة العربية بالحروب والاحتلال؟ وهل هناك آثار إيجابية، أو سلبية فقط؟.

السؤال الثاني: لماذا العراق نموذجاً؟ وهل إخضاع تجربة العراق اللغوية في خضم الحروب والاحتلال كافية لتوصيف صورة البحث وتقريب الغاية من الأهداف؟.

السؤال الثالث: ما هي آثار الحروب والاحتلال على العراق قديماً وحديثاً؟.

السؤال الرابع: هل اللغة العربية في حسابات مخططات الأعداء ومن أهداف

المحتلين؟ وما مدى التنبه والتمعن لتلك المؤامرات من خلال التعامل العسكري والسياسي والثقافي؟.

السؤال الخامس: ما هو الدور المناط بأساتذة اللغة العربية وعلمائها وشيوخها المعاصرين، وكذا طلاب علمهم، للدفاع عن لغتهم، وما هي المحاولات الجادة للبناء مقابل موجات الهدم؟.

حدود البحث

حدود البحث لا يتجاوز العراق، اللهم إلا ما يتطلبه البحث من تعريف بإيجاز عن الأقوام الغازية والدول التي حاربت العراق واحتلته، وهذا التحديد من أجل التقيد مكانياً بعيّنة للدراسة الميدانية، ومن ثم فإن الباحث هو ابن البلد نفسه، وحديث عهد بالخروج منه، ومن المتابعين له إخبارياً بمشاركات إعلامية داخل العراق وخارجه.

منهج البحث

(١) اعتماد المنهج الاستقرائي الوصفي للحروب والاحتلال وملابسهما في الساحة العراقية.

(٢) اعتماد المنهج التحليلي للوقائع، وقراءة نقدية للمواقف المتباينة.

(٣) اعتماد المنهج الميداني من خلال الكشف عن آثار اللغة العربية في أحداث الحروب والاحتلال.

خطة البحث

جاءت خطة البحث في مقدمة وتمهيد لوصف البحث وثلاثة مطالب رئيسة وشاملة لموضوعه، ومؤدية للغرض المقصود.

المطلب الأول

أرضية العراق اللغوية

يتضح من تاريخ العراق أنه كان يمثل صراعاً بين كل الشعوب الوافدة إليه، ولاشك أن اللغة واحدة من تلك الصراعات، واستطاع العراقيون أن يحدثوا تمازجاً وتعايشاً لغوياً بين مختلف الفئات المتعايشة على أرض الرافدين من العرب، والصابئة، والكلدان، والسريان، والآشوريين، والأكراد، والتركممان، وقد كان لعامل الدين الإسلامي والهوية العربية للبلد أن تكون اللغة العربية هي أداة التواصل بين هذه المجموعات ذات الجذور الأعجمية والأجنبية، وساهم في ذلك عنصر التصاهر والتجاور والتجارة والدراسة وغيرها، فقد نطق بالعربية في العراق ممن ليسوا من العرب، وتحدثوا اللهجة العراقية العامية مع شيء من اللكنة والعجمة الواضحة والمعهودة في ألسنة بعضهم.

نستثني من ذلك الأكراد الساكنين في حدود العراق الشمالية والشمالية الشرقية المجاورين لإيران وتركيا الواقعين على خط طول هلال من تل عقرة وتلعفر في محافظة نينوى الشمالية إلى مندلي وخانقين في محافظة ديالى الشرقية، حيث تكاد تنحصر اللغة العربية أو لا تكاد أصلاً عند بعضهم.

ويتكلم باللغة العربية أكثر من ٨٠% من سكان العراق، كما يتكلم بها معظم أهل اللغات الأخرى الساكنين في العراق كالأكراد والفرس والأرمن والكلدان والشركس واللاجئين وغيرهم، ولذا يمكن القول بأن نسبة المتحدثين باللغة العربية في العراق قد ترتفع إلى نحو ٩٧% من مجموع سكان

العراق^(١)، ويتكلم بعض العراقيين اللغة الكردية ويتحدث بها حوالي ١٥ % من سكان العراق وهي لغة الغالبية من الزيدية ذات الأصول الفارسية القديمة، وأما اللغة التركية والتركمانية فيتكلم بها مجموعة من السكان تقدر نسبته بحوالي ٩،١ % من مجموع السكان، ومن الجدير بالذكر أن اللغة التركية دخلت العراق مع العثمانيين الأتراك، وأما اللغة التركمانية فدخلت العراق في عهد المغول، ومن اللغات الأخرى في العراق الآرامية وهذه جاءت العراق مع السريان الوافدين للعراق من سوريا، وهي لغة الكنيسة في العراق، ويتكلم بها المسيحيون السريان والكلدان ويشكلون نسبة ٣،٠ % من مجموع سكان العراق، وكذلك اللغة الآثورية تشكل النسبة نفسها وهي لغة منعزلة في المناطق الجبلية الشمالية، وأخيراً اللغة الأرمنية وهي لغة من نرح للعراق بعد الحرب العالمية الأولى، ولها أجديتها الخاصة، ونسبتهم ٠،٢ % فقط^(٢).

وعلى أرض العراق نشأت العلوم اللغوية، فوضعت قواعد النحو العربي وصرفه في البصرة، وخولفت بالأقيسة النحوية في الكوفة، وجمعت أصولهما بغداد، وراج الشعر ورواته في العراق في المربد وكناسة وغيرهما من محالس الأدب والسماع، وبعد أن كان العروض سماعياً في شبه الجزيرة العربية، قيّد أوزاناً وتفاعيل في العراق، وصنف في العراق أمّات الكتب والمؤلفات في اللغة العربية وعلومها وآدابها فضلاً عن الترجمة منها وإليها، وإذا كانت القراءات القرآنية سبعة فإن أربعة منها لقراء عراقيين، وإذا كانت عشرة فستة منها حصة

(١) انظر : سكان العراق : ١٩ .

(٢) انظر : سكان العراق : ١٩ .

العراق، وإذا كانت أربعة عشر فتسعة منها هي في أرض الرافدين الطيبة المباركة.

المطلب الثاني

آثار الحروب والاحتلال الإيجابية على اللغة في العراق

فيما يأتي بيان لأهم المخطات التاريخية التي أثرت اللغة وعلومها بشكل عام من خلال تعاقب الدول والأقوام التي حكمت العراق، وأثر التدافع بين السلطات الحاكمة على هذا البلد بالنظر إلى خلفياتهم العلمية والثقافية والحضارية.

كتابة اللغة: بدء النشاط البشري في العراق في حدود ٦٠٠٠ سنة ق.م في العصور الثلاثة التي اصطلح عليها المؤرخون بالعصر الحجري: (القديم، والأوسط، والحديث) حيث شهدت الحضارة العراقية تطوراً كبيراً، وقد توج هذا التطور بابتكار الكتابة _لأول مرة في تاريخ الكتابة والقراءة_ إذ عثر على أول نموذج لها بهيئة صورية في مدينة الوركاء، وقد امتد تأثير الحضارة السومرية العربية إلى العيلاميين في إيران، وبلاد الأناضول، ومصر، كما يعطي فكرة عن حجم التطور الذي انتهى إلى ظهور أول أشكال السلطة وبداية عصر حضاري جديد^(١).

ويتفق المؤرخون على أن الإنسان العراقي القديم يقف وراء التطور الحضاري، وهو صاحب رسالة التطور النوعي للمجتمع والانتقال به من البدائية إلى الحضارة والمدنية، فالعراق مهد الحضارات التي عرفها الإنسان

(١): المسلمون في العراق: ١٠.

باسم: (بلاد وادي الرافدين) أو: (بلاد ما بين النهرين) أو: (وادي الرافدين)، وعرف أهلها بدايات التنظيم الاجتماعي والسياسي للإنسان القديم، ويرجع أصل سكان العراق إلى القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين^(١).

وفي تراث العراقيين القدماء البدايات الأولى للكتابة في مرحلة التصوير والرسم للمحسوسات والمخلوقات التي تعيش إلى جانب الإنسان، والثابت في الدراسات التاريخية والبشرية أن السومريين سكان العراق الأصليين كانوا يكتبون على الطين بخطهم المسماري القديم الفنون والثقافة في عصر فجر السلالات السومرية^(٢).

وعندما جاء الأكاديون حلت اللغة الأكادية محل السومرية في هذا العصر، فعندما أقام الأكاديون دولتهم على أنقاض دولة السومريين، أخذوا الخط المسماري منهم؛ طوّروه وأدخلوا عليه الرسم الصوتي المقطعي، وأجروا تعديلات فنية على الخطوط فبعد أن كتبوا من الأعلى إلى الأسفل أخذوا يكتبون أفقياً من الشمال إلى اليمين^(٣).

وتعاونت أكد وسومر في بناء الحضارة، ومثلت لغة الشعبين وحدة لغوية بينهما، فطوروا النظام اللغوي الصوري إلى شكل الكتابة الرمزية المسمى بالخط المسماري، وهم أول من أسس النظام التعليمي المركزي (نظام المدارس)^(٤).

(١) انظر: المصدر نفسه.

(٢) انظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية: ١١٧

(٣) انظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية: ١١٧

(٤) انظر: الدولة العباسية: ١١٩

نظام القراءة والكتابة في المدارس: إذا ذكرت المعرفة واللغة والثقافة في العصر البابلي الأول فينحصر الكلام في جهود الملك السادس حمورابي في هذا المجال أو تكاد، فقد حكم سلالة بابل الأولى (١٧٩٣-١٧٥١ ق.م) تمكن خلالها من توحيد العراق بعد أن كان ممزقاً إثر سقوط سلالة أور الثالثة إلى عدة ولايات، واهتمّ ببناء المدارس، إضافة إلى دور العلم والمعرفة في المعابد، وشجّع حركة جمع التراث الفكري، ومن أشهر أعماله مسلة حمورابي التي دوّن عليها تشريعاته وقوانينه^(١).

التأليف اللغوي وجمع التراث: منذ عصر البابليين المبكر أخذ العراقيون القدامى في التدوين، وبدأت أول مرة حركة العناية بتراث العراق القديم وتدوينه وإعادة كتابة الملاحم السومرية، وازدهرت الثقافة والأدب والفنون، وقد شهد هذا العصر أقدم نسخة من ملحمة كلكامش التي خلدت مآثر ملك سلالة الوركاء الأولى وهي من أشهر النتاجات الأدبية اللغوية في تاريخ الحضارات القديمة، وإلى هذا العصر تعود قصة الطوفان وقصة الخليقة البابلية وغيرهما^(٢)، وعرفت الإمبراطورية الآشورية وقاعدتها نينوى بشمال العراق بأنها دولة حربية ما تخرج من حرب إلا لتدخل في حرب أخرى، ولكن في الحقبة (٩١١-٦١٢ ق.م) ازدهر تاريخ الآشوريين الثقافي، واشتهروا بإبداعهم الحضاري وشهدت مدنها تطوراً ثقافياً وحضارياً، ولا سيما تلك التي حوّلها مكتبة آشور بانيبال وكانت سجلاً للحياة العراقية القديمة.

(١) انظر: موسوعة دول العالم الإسلامي : ٨٣/١.

(٢) انظر: موسوعة السياسة: ٤/ مادة (العين) .

وكذلك يتميز عهد الكلدانيين ببعث الثقافة العراقية القديمة ولا سيما في حقول الأدب والعلوم والمعارف الأخرى والاهتمام بالماضي وجمع مخلفات الملوك العظام وهو اتجاه واضح في حياة الملوك الكلدانيين، ويذكر أن البابليين في عصرهم الثاني اتجهوا إلى الأدب وإحياء التراث واستشارة الهمم والتجارة عندما خضع مجتمعهم للاحتلال^(١).

المحافظة على اللغة والثقافة والهوية: شهد العراق في المدة: (٥٣٩ إلى ٣٢١ ق.م) غزواً فارسياً بقيادة الملك كورش الإخميني الذي احتل مدينة بابل واتخذها عاصمةً مُلكه، وكان هذا الغزو بداية لفترة احتلالية طويلة تعددت فيها الأطراف التي مارست احتلال العراق، شهد العراقيون فيه سياسية توطين الفرس وبخاصة رجال الدين المخوس ببلاد بابل في محاولة لفرض طبقة ثقافية وثقافة دخيلة على المجتمع، وقام الفرس بإقصاء الكهنة والكتاب البابليين، إلا أن العراقيين لم يرضوا ذلك؛ سرعان ما اتحدوا ونشطوا في دور علمي وفكري ظهرت نتائجه في وقت لاحق في حين لم يستطع الفرس خلق أي ثقافة في العراق وبقوا فيه محتلين يمتلكون القوة ولا يمتلكون الإبداع^(٢).

وازداد تمسك المجتمع بثقافته الوطنية وأصبح اسم نبوخذنصر رمزاً للوطنية آنذاك، واتخذ اسماً كل تائر ظهر في بلاد بابل مما يدل على فعل الذاكرة التاريخية في صنع المواقف السياسية، ويظهر من قوائم أسماء المولودين في عهد الاحتلال تدني نسبة الذين سمو أبناءهم بأسماء فارسية على خلاف الفرس الذين

(١) انظر: موسوعة السياسة: ٤/ مادة (العين).

(٢) انظر: تاريخ العراق - منبر الحقيقة: ٦.

انتقلوا إلى العراق واليهود الذين اتخذوا الأسماء البابلية بكثرة، ولم يعتنق السكان العراقيون الديانة الزرادشتية، ولم تكشف البقايا الأثرية أية آثار لمعبد نار في العراق^(١).

الصراع اللغوي القومي بعد الموجة الفارسية: جاءت إلى العراق بالتعاقب موجات غزو فارسية بدأت بالأخمينيين فالسلوقيين فالفرثيين فالساسانيين، ومع هذه الاحتلالات فقد ظهرت بعض الممالك العربية الصغيرة التي تشبه دويلات المدن للتعبير عن استمرار العطاء الحضاري العربي حتى في أوقات الضعف السياسي، مثل دولة الحضر (مدينة العرب الصحراوية)، والتي اشتهر من ملوكها (سنطرق ملك العرب)، ودولة المناذرة في الحيرة التي برز فيها من الملوك النعمان الأول (٤٠٠ _ ٤١٨ م)، والنعمان بن المنذر (٥٨٠ _ ٦٠٢ م)، وذاع صيتها بمعركة ذي قار مع الفرس الساسانيين، وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم^(٢).

ارتباط اللغة بالدين: بعد معركة القادسية أصبح العراق جزءاً من الدولة الإسلامية، ودخلت اللغة العربية إلى عموم العراق وأرجائه مع الفاتحين، وكان لنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، واختيار نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أفصح من نطق بالضاد من قريش، كان أثر ذلك أن ارتبطت اللغة العربية بالإسلام، وكان لارتباطها شرف وتعظيم من جهة تلك الرابطة والعلاقة، وكان لها ارتباط آخر من جهة وقوفها في الخطوط الأمامية عند كل

(١) انظر: المصدر نفسه .

(٢) انظر: معجم البلدان : ٢٩٤/٤ .

مواجهة ضد الإسلام والمسلمين لتصدي الهجمات، وهذه الحالة الأخيرة مما لا يخفى على أحد أن الأيام زادتها قوة وحيوية أكثر مما زادتها ضعفاً وهواناً، لأن حفظ اللغة ارتبط بحفظ القرآن هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد جعلت لسان كثير من المنتمين لهذا الدين من غير العرب، ولذلك يجب على العرب وغيرهم الدفاع عن لغة دينهم، فيجب أن يعلم أنه ليس الهجوم على اللغة العربية كونها أداة للتفاهم والتخاطب والمحادثة فحسب؛ بل لأنها لغة الإسلام، واللغة التي حفظت وحملت تراث المسلمين وحضارتهم عبر خمسة عشر قرناً، ومن هنا ركز الأعداء على إضعاف اللغة العربية ومحاربتها^(١).

الدعم العربي للعراق لغوياً: أدركت الخلافة الراشدة المهدية أهمية العراق بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (أهل العراق كنز الإيمان، وجمجمة العرب، وهم رمح الله عز وجل)^(٢)، فهاجرت من بلاد العرب قبائل كثيرة ونزلت العراق، وكان الأساس في تعريب هذا البلد بعد أن عاثت فيه الرياح الفارسية، واستبدلت لغة الإسلام العربية اللغة الفارسية والسريانية وغيرهما في العراق، ولم تمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة فيه، ومن ثم ما هو معلوم أن اللغة العربية لم تتراجع من أرض دخلتها^(٣)، ولما هجر الدين اللغات الأعجمية في العراق، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت الألسنة الأخرى كلها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر

(١) خصائص اللغة العربية، ولماذا يجب تعلمها: ٨٣.

(٢) تاريخ بغداد: ٥٢/١.

(٣) خصائص اللغة العربية، ولماذا يجب تعلمها.

الإسلام وطاعة العرب، وهجرت الأمم لغاتهم وألستهم في الأمصار والممالك جميعها، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في أمصارهم جميعها، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة وغريبة^(١)، هذا هو أثر النصر في المعركة اللغوية ودور الدعم في مساندة القضية اللغوية حينما تهدد بالخطر، ومن هنا يأتي قول العلامة ابن خلدون: (أنَّ المغلوب مولع أبداً الاقتداء الغالب في سائر أحواله، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تفتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه)^(٢).

المدارس النحوية: شيدت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) البصرة والكوفة بعد فتح العراق، ليكونا من بعد مقربين رئيسين لإدارة الإسلامية في العراق، وقد أقام الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالكوفة معظم أيام خلافته.

وفي هاتين المدينتين أنشئت المدارس النحوية، والمقصود منها هي الاتجاهات والمذاهب التي تختلف وجهات نظرها في بعض المسائل النحوية، وقد كان وضع النحو ونشأته في العراق؛ لأنَّه كان على حدود البادية، وهو ملتقى العرب والعجم لما حباه الله من أسباب الرخاء والعيش فكان العراق أبرز بلد انتشر فيه اللحن الذي بسببه وضع علم النحو.

وإذا كان أبو الأسود الدؤليّ هو الذي تشير إليه الأصابع بأنه واضع النّحو العربيّ فإنَّ النحو نشأ في البصرة التي كان أبو الأسود من أهلها، وذلك

(١) تاريخ بغداد: ٥٢/١.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ١١٤.

لتحصين الألسنة من آفة الخطأ المزري بصاحبه، فقد بدأ غرس النحو في البصرة وترعرع وازدهر فيها، ثم جاءت الكوفة من بعد البصرة لتحقيق في النحو دراسات واسعة النطاق، ثم يأتي دور بغداد في إكمال النحو وتطوير قواعده، ثم برز شعاع هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية، وقد ذكر الشيخ محمد الطنطاوي ذلك فقال: (وعلى ضوء هذا التاريخ فقد عدنا أطواره _ أي النحو _ الأربعة: طور الوضع والتكوين (بصري)، وطور النشوء والنمو (بصري كوفي)، وطور النضج والكمال (بصري كوفي)، وطور الترجيح والبسط في التصنيف (بغدادى، وأندلسي، ومصري، وشامي)^(١)، ولقد كان في كل مرحلة من تلك المراحل علماءها الذين أسهموا في خدمة علم النحو درساً وتأليفاً وتطويراً، وكان لكل مدرسة نحوية أصولها وقوانينها التي قام عليها مذهبهم النحوي.

إعجام القرآن الكريم وتنقيطه: شهد العراق إبان الحكم الأموي العديد من الحروب بين مؤيدي أبناء الإمام علي (رضي الله عنه) والدولة الأموية، وحين وليّ الحجاج بن يوسف الثقفي العراقيين سنة ٧٥ هـ أراد له بداية جديدة تبدأ بالحزم ويصاحبها العلم.

وأحداث العراق تلك لم تمنع من القيام بإعجام المصاحف؛ إذ بعد أن اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم، وكادت العجمة تمس سلامة اللغة، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف يلح بالناس حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير

(١) انظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: ٣٦.

معجمة، فأمر الحجاج والي العراق (نصر بن عاصم البصريّ ت ٨٩ هـ) و(يحيى بن يعمر البصريّ ت ١٢٩ هـ) لتنقيط حروف المصحف، ونجحا في هذه المحاولة وأعجما المصحف الشريف لأول مرة ونقطا جميع حروفه المتشابهة والتزما ألا تزيد النقط في أي حرف على ثلاث، وشاع ذلك في الناس بعد فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف^(١).

ومن أسباب التنقيط اللغوية: كثر التصحيف في العراق ففزّع الحجاج كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فوضعوا النقط أفراداً وأزواجاً، وخالفوا بين أماكنها فأصبح الناس لا يكتبون إلا منقوطة ثم أحدثوا الإعجام^(٢).

حركة الترجمة اللغوية: بعد أن آل الحكم إلى بني العباس انتقل مقر الخلافة الإسلامية إلى بغداد سنة ١٤٧ هـ، وكان المنصور قد أطلق عليها اسم (مدينة السلام)، وعاش العراق أفضل مراحل عطائه الحضاري، واستقطبت المدينة المدورة علماء ومفكرين من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغت قمته في عصر هارون الرشيد المعروف بالعصر الذهبي^(٣)، وشهدت بغداد أواخر القرن الثاني الهجري حركة الترجمة التي بدأت في العصر العباسي الأول منذ عهد أبي جعفر المنصور، والتي ازدهرت في عهد الرشيد، وكان بيت الحكمة الذي أسسه المأمون سنة ٨٣٠ م شاهداً على تلك الحركة وتطورها؛ إذ ترجم التراث الثقافي اليوناني وكتب الطب والفلك والجبر والكيمياء، فحفظت بغداد التراث

(١) انظر: مناهل العرفان: ١٨٠/١.

(٢) انظر: الإسلام والحضارة العربية: ١٦٤/١.

(٣) انظر: الدولة العباسية: ١١٩.

الإغريقي الذي عرفته أوروبا في عصر نهضتها^(١)، ومضى القرن التاسع الميلادي برمته وبغداد تترجم لأقليدس وأرخميدس وبطليموس وديسقوريدس وأبقراط وجالينوس وأرسطو وتاوفرسطس وغيرهم^(٢).

تعليم العربية لغير الناطقين بها: بعد أن ضعف حكم العباسيين وتدهور وضعهم مكّن البويهيون من الحكم، وقد شجع أمراء بني بويه _ الذين ينتمون للأصل الفارسي _ شجعوا وزراءهم على تعلم اللسان العربي والأدب العربي والعلوم العربية؛ لأن اللغة العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته عن اللغة الفارسية، فأسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي (دار العلوم) سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م، لتعليم العربية لغير الناطقين بها من أبناء قومه^(٣).

تخصيص مادة النحو العربي في المدارس العلمية: عندما ضعف البويهيون وانهارت دولتهم استولى السلاجقة على مقاليد الأمور ببغداد عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م^(٤)، وكان لازدياد نفوذ السلاجقة واستقرار الحياة السياسية في دولتهم بعد سيطرتهم أثره الواضح في انتشار دور العلم ومعاهد الثقافة في أمهات المدن العراقية، وأخذت حلقات العلم تنمو وتتطور في المساجد والربط والمدارس وغيرها^(٥).

(١) انظر: الدولة العباسية : ١١٩

(٢) انظر: الإسلام والحضارة العربية: ١ / ١٦٦.

(٣) انظر: ظهر الإسلام : ١ / ٢١٧ ، ٢٥٥ .

(٤) انظر: سلاجقة إيران والعراق : ١٦ - ١٨ .

(٥) انظر: المدارس النظامية مجلة كلية الدراسات الإنسانية، العدد (١٦) : ١١١ - ١١٢ .

فأمر نظام الملك الحسن الطوسي (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) ببناء المدارس في مدن وحوضر العراق، حتى صار له بكل مدينة بالعراق مدرسة، وكانت تسمى بالمدارس النظامية، ومنها المدرسة النظامية ببغداد، ومدرسة الرضى النظامية بالموصل، ومدرسة البصرة النظامية وغيرها، وكانت تدرس العلوم الشرعية، وأولت الاهتمام بعلم الكلام وعلوم اللغة العربية كالنحو والأدب والبلاغة، واشترط أن يكون في كل مدرسة مقرئ يُقرئ القرآن ونحوي يدرس العربية^(١).

إجراءات لغوية في أنظمة الدولة العراقية الحديثة: اللغة العربية هي اللغة الرسمية في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٣٢م وباعتراف عصبة الأمم والهيئات الدولية، وأصدر العراق عام ١٩٧٧م قانوناً لصالح اللغة العربية وهو قانون: (سلامة اللغة العربية) الذي ينص على ضرورة أن يحترم مستعمل اللغة العربية بالعراق سلامتها، وألا يخطئ في كتابتها أو النطق بها، من أجل ذلك كانت تعقد لرجال الدولة دورات لغوية مستمرة، وأُلف أستاذي الدكتور رشيد العبيدي (رحمه الله) كتابه: (نحو الموظف)، وكانت للمجمع العلمي العراقي ببغداد يد في صياغة الأسماء التجارية والمحال العامة، وأسماء الشوارع والأحياء والساحات المروية بأسماء عربية، وتعريب المصطلحات الأجنبية والعلمية، والخروج بقرارات لغوية دورية تحافظ على سلامة اللغة. وتم فتح واستحداث أقسام متخصصة في اللغة العربية، وقرر منهج اللغة

(١) انظر: المدارس النظامية مجلة كلية الدراسات الإنسانية، العدد (١٦): ١١١ - ١١٢.

العربية للمدارس الابتدائية والثانوية والإعداديات عامة، وقررت مادة اللغة العربية وبعض علومها في كليات وأقسام أخرى ولاسيما الشرعية، كما وصفت مادة: (العربية العامة) لمقررات الأقسام العلمية في الجامعات العراقية كافة، وأعيد تشكيل حلقات العلم في المساجد بعد أن خفت نورها وكان من أهم اهتماماتها باللغة العربية وعلومها وسائر علوم الآلة حيث كان المشايخ والعلماء يفتتحون الدرس النحوي بمقدمة ابن آجروم ثم بقطر الندى لابن هشام ثم بكتابه الآخر شذور الذهب، ثم بألفية ابن مالك، وكان المتن في مثل هذه الحلقات يحفظ، وهكذا النظام لكتب الصرف والبلاغة والعروض والإملاء والإنشاء، كما وأن الواقع يشهد في هذه الفترة كثرة الأبحاث والدراسات والمؤلفات اللغوية، فضلاً عن الأطاريح والرسائل الجامعية العلمية وأبحاث الترقية التي أشبعت الدرس اللغوي بحثاً وتحقيقاً وتأليفاً ونشراً.

جهود المقاومة في العراق في الحفاظ على اللغة العربية: لا يتصور أحد أن للمقاومة في العراق دوراً في الحفاظ على اللغة العربية بالرغم من عظم مسؤولياتها وكثرتها، لا سيما وأنهم أدركوا من بداية المعركة أن أعداءهم في الداخل والخارج يحاولون استمالة الناس باللغة العربية فكانت المنشورات تكتب بلغة عربية ركيكة جداً، وتبث إيران وأمريكا وغيرهما قنوات إخبارية فضائية باللغة العربية، ووسائل الإعلام التي تتناول العراق وأحداثه الجارية كانت موجهة، فضلاً عن الإعلان عن هذا الغزو بأنه صليبي بصريح اللسان، فكان عامل الدفاع عن اللغة العربية دينياً، فالتزمت المقاومة اللغة العربية الفصحى في شأنها كله، وحرصت على أن تبقى للعراقي أذن تسمع الفصحى، وعين تقرأ الفصحى بعبارات مختارة لغوياً وحضارياً وشرعياً تتصدى للأجنبي والدخلاء

ولغاتهم، وقد خصصت بعض الجامعات الجهادية بعض كتب النحو لتدريسها، واختيرت المقدمة الآجرومية (أخشى أن تدخل هذه المقدمة النحوية في لائحة الإرهاب!!!)، وكانت هناك تصحيحات لغوية آنية للقائمين بهذا الفرض، وكتبت مقالات وهي منشورة على الإنترنت من أهمها: (الأخطاء اللغوية عند المجاهدين والحاجة إلى تصحيحها لتعجيل النصر).

وأن الاختيار الدقيق لمفردات المقاومة للوصول إلى المعاني أعطت للبلاغة روحاً جديدة كحوليات الجاهليين ومفضليات الإسلاميين، وأحييت ألفاظ الجهاد التي كادت أن تموت وتطمس، وكأن المعركة في العراق هي معركة لغوية، ولك أن تقدر اللغة في هذه العبارات الآتية: (مدرعة أمريكية تعيش أنت ويموت من فيها بعد إحراقهم، معارك طاحنة يخرج منها العدو منسحباً يجر أذيال الخيبة، انفجار قاعدة عسكرية يهز الأرض ويضيء السماء، نقطة تفتيش تدك بصاروخ .. الخ).

المطلب الثالث

آثار الحروب والاحتلال السلبية والسيئة على اللغة في العراق

والآن يتطلب البحث العلمي إجراء موازنة ومعادلة لتناول الآثار السلبية والسيئة للحروب والاحتلال على اللغة من خلال هجمات الأقوام وعدوان الدول التي جاءت إلى العراق في فترات التاريخ المختلفة.

(١) سرقة الجهود اللغوية وتدميرها: بعد وفاة الإسكندر المقدوني الكبير الذي هزم الفرس من العراق سنة ٣٢١ ق.م، كان العراق من نصيب الدولة السلوقية، واتسم عهدها بالاضطرابات والنزاعات والخلافات بين الطامعين، ففرغت بابل للعلم فقصدها علماء اليونان طلاباً، وكانت لليونانيين فرصة

ثقافية فقد لجأوا إلى إلغاء الدور المحلي للمجتمع المحتل، والاستيلاء على التراث بكل ثقافته وحضارته ولغته، غير أنهم لم يفلحوا واضطروا إلى إعطاء المجتمع البابلي دوراً فعادت بابل إلى دورها السابق؛ ولكن بطابع جديد يطمس معالم الحضارة القديمة ويلغي دور العراقيين في التقدم العلمي الذي سلبوا معه أسماء المبدعين فأطلقوا عليهم أسماءهم أو غلفوا بأسماء يونانية لإسدال الستار على كل ما هو عراقي ونسبته إلى أنفسهم^(١)، وحين جاء الغزو العيلامي دمروا بابل ومدناً عراقية أخرى وسلبوا ممتلكاتها بما في ذلك مسلة النصر ومسلة حمورابي أيضاً وتمثال مردوخ كبير الآلهة البابلية وغيرها من آثار العراق اللغوية والثقافية^(٢).

(٢) قطع العلاقات مع العرب والعروبة: عندما استولى الساسانيون من ٢٢٤م إلى ٣٣٧م على العراق، شهد عصرهم إصرار الفرس على إقصاء العرب من العراق، وتذويب سكانه القدماء بمنع تواصلهم مع إخوانهم عرب الجزيرة، ومنع تحرك القبائل العربية المتوجهة إلى العراق^(٣).

ومع ذلك فقد ظهرت إمارة الحيرة في أوائل القرن الثالث الميلادي إحدى ثمار الهجرة العربية في زمن النعمان بن المنذر، وعيّن الساسانيون ملكاً من أسرة اللخمين لينوب عنهم في العراق، وفي سنة ٦٠٢ عينوا حاكماً فارسياً على العراق حتى انهزم الفرس بسقوط المدائن على أيدي المسلمين بعد شهرين

(١) انظر: حضارة العراق: ٢٣٠/٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه.

(٣) انظر: أثر الاحتلال الأمريكي على هوية العراق العربية: ٧ - ٨.

من معركة القادسية سنة ٦٣٧م/٤هـ^(١).

(٣) هجرة العلماء بسبب الاضطرابات: كانت حلقات العلم تعقد في مركزي البصرة الثقافيين المسجد الجامع والمربد، لإقراء القرآن وتفسير ألفاظه، وكذلك لسماع الشعراء والخطباء من أعراب الفصحاء اللذين يردون في المواسم حيث اللغة الفصيحة والأساليب البليغة^(٢)، واستمرت هذه الحركة حتى جاءت ثورة الزنج في العراق ٢٥٥-٢٧٠ هـ على البصرة، وكان من نتائجها حرق المسجد الجامع بالبصرة، فهاجر الكثيرون من علمائها واستقروا ببغداد وواسط^(٣).

(٤) غزو اللغة الفارسية للعراق: أسقط القائد المغولي هولاكو سنة ١٢٥٨ م _ ٦٥٦ هـ عهد العباسيين بعد أن دخل جيشه بغداد، وتحولت عاصمة الخلافة إلى مدينة تابعة إلى إيلخانية فارس يحكمها هولاكو وأبناؤه، وقُسمت إلى قسمين، الأول: منطقة شرقي دجلة التي اتسعت فيها معالم الحضارة الفارسية، والآخر: منطقة غرب دجلة حيث احتفظت بالبقية الباقية من الثقافة العربية.

ومن هنا بدأت التفرقة بين اللغتين العربية والفارسية، ففي شرق دجلة تمسك الفرس بلغتهم، وفي غرب دجلة كانت خسارة الثقافة العربية فادحة بعد أن أحرقت ألوف الكتب والمحفوظات والمخطوطات، وأغرق بعضها في

(١) انظر: المصدر نفسه.

(٢) انظر: حضارة العراق: ٨ / ١٢٨.

(٣) انظر: حضارة العراق: ٨ / ١٢٨.

دجلة^(١)، وكذلك شهدت بغداد انتشاراً للغة الفارسية بعد أن دخلها إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م^(٢).

(٥) دخول العامية إلى لغة العراقيين الفصحى: لا يمكن أن تقصر العامية العراقية في بدايتها وشيوعها على العصور العباسية، ولعلها ورثت شيئاً من ذلك في عصور سلفت، ولقد بقيت العامية إلى جوار الفصحى في العراق طوال العصور العباسية، وهكذا كان الأمر إلى نهاية عصر الدولة العثمانية، وفي هذه الحقبة المتأخرة لم يبق للفصحى من القدر ما كان لها في العصور المتلاحقة، بسبب شيوع الجهل وتضاؤل التعليم، فقد اقتصر على طائفة قليلة، فغفت دور العلم وقلت المدارس، فكانت أمية شاملة^(٣).

(٥) خطورة المستعربين على العراق: عانت الخلافة الإسلامية الراشدة من ظاهرة الفرس المستعربين وغيرهم، حيث مكنتهم اللغة الثانية من الاحتكاك بالمجتمع الإسلامي، ومن سهولة التخطيط للمؤامرات أو التجسس على أحوال المسلمين وأمورهم، ولذلك كان دعاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (اللهم لا تدركني أبناء الهمذانيات والأصطخريات _ وعدد قرى من قرى فارس _ الذين معهم قلوب العجم وألسنة العرب)^(٤).

(٦) الاستعمار اللغوي بغطاء القومية العربية: لقد استعمل البريطانيون الحيلة

(١) انظر: السلاطين في المشرق العربي: ٥٨.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١١٢.

(٣) انظر: قصة العامية في العراق: ٥٠.

(٤) انظر: الإسلام والحضارة العربية: ١ / ١٧٥.

مع العراق يوم أن علموا أن هناك خلافات (قومية) للعرب مع الأتراك العثمانيين، ووعدوا العرب بالاعتراف باستقلالهم ودولتهم الموحدة، وأعلنوا في ١٩١٨م أنهم (محررين) لا (فاتحين)؛ لكن البريطانيين تنكروا لوعودهم، فرفض الشعب العراقي سيطرة الإنكليز، لكن بريطانيا عملت على اضطهادهم فشار الشعب في ٣٠/٦/١٩٢٠م عليهم، وقاتلوهم بأدوات بسيطة مقابل البنادق والمدفعية للحفاظ على إرثهم وحضارتهم، ومع إن ثورة العشرين لم تحقق أهدافها كاملة فقد كانت نموذجاً حياً لمقاومة الاستعمار، ومن بين مخلفات الإنكليز اللغوية كلمات ومفردات عدة مقحمة في العامية العراقية لحد الآن دخلت من خلال العمل والسياسة فضلاً عن وجودهم الميداني في البلد.

(٧) هدم بوابة العروبة المنيعة أمام بلاد فارس: إن محاولات نزع الهوية العربية عن العراق ما هي إلا رد فعل على مواقفه القومية في التاريخ، فالعراق على مختلف أنظمتها السياسية السابقة كان يكافح بالنيابة من أجل المشاريع العربية، فالعراق مؤسس في جامعة الدول العربية، والنظام الملكي أراد أن ينشأ الاتحاد الهاشمي مع بعض الدول العربية، فضلاً عن المواقف القومية العراقية الأخرى، فالعراق يمثل البوابة الشرقية للوطن العربي، فنزع هويته العربية عنه يمثل سقوطاً لهذه البوابة، وبالتالي يكون الوطن العربي ساحة مفتوحة للأطماع، وهذا ما أثبتته الأحداث في التاريخ، وفي الوقت نفسه يمثل العراق عمقاً للعروبة، وكان لحد وقت قريب ستاراً لدول الخليج العربي اتجاه النفوذ

الفارسي، وتعطيل مبدأ تصدير الثورة الفارسية للمنطقة^(١).

(٨) **أثر الحصار الاقتصادي:** أدت العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق إلى الحد من مظاهر الحفاظ والاهتمام باللغة العربية، حيث أن اللغة بوصفها جزءاً من ثقافة البلد تأثرت هي الأخرى بتلك العقوبات، وأدلى مسؤولون في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) تحذيرات أعلن فيها خبراء المنظمة لوضع خطط لحماية التراث الثقافي العراقي، وطالبوا دول التحالف الضالعة في الحرب ضد العراق ومقاطعته وحصاره، باحترام معاهدة لاهاي بشأن حماية التراث الحضاري.

(٩) **ألفاظ الحرب والاحتلال ودلالاتها اللغوية:** استعمل وزير الإعلام العراقي الصحاف أثناء غزو العراق كلمات، كانت محملة بإيحاءات سياسية، فوصف جنود الغزاة بـ (العلوج) وهي لفظة مستعملة في بعض فترات التاريخ لوصم الأعاجم من غير العرب كالفرس والروم؛ كونهم لا ينتمون للأصل العربي؛ لأنهم ليسوا من سلالة العرب، فبان لنا أن هذه الحرب هي الحرب على الهوية الحضارية لهذا البلد، وهكذا بقية الأوصاف: (مرتزقة، عصابات سطو مسلح، إرهاب دولي، خائبون... الخ).

وحاول المحتلون أن يخوضوا حرباً لغوية فكانوا يتصرفون بالألفاظ لخدمة سياستهم فوزير الدفاع الأمريكي كان يصف المدافعين عن أرضهم بـ (الإرهابيين)، وهم أيضاً غيروا موضوع (الاحتلال) إلى (التحرير) في مطابقة

(١) انظر: أثر الاحتلال الأمريكي على هوية العراق العربية: ٧ - ٨.

(لغزو) و(العدوان)، ونشروا مصطلح (الحرية) و (الديمقراطية) مقابل: (سيادة البلد واستقلاله) و (إذلال الشعب وإيذائه).

(١٠) المحتلون الأمريكيان يتعلمون اللغة العربية لأغراض خاصة: يحاول المارينز أن يتعلموا اللغة العربية في إطار تدريباتهم التثقيفية في برنامج خاص بولاية كاليفورنيا الأمريكية من أجل الانتصار في وجه التحديات _ بزعمهم _ قبل ذهاب الجنود إلى العراق، ويتلقى الجنود حوالي (٢٠٠) كلمة بالعربية والعامية العراقية، ولكن ذلك ضرَّ العراقيين أكثر مما نفعهم، حيث الترجمة الضعيفة، وعدم الفهم الدقيق للمعاني ومدلولاتها، ويتحدث العربية (٢٦٠) جندي فقط في الجيش الأمريكي في العراق البالغ عددهم _ في بدء الحرب _ (٢٠٠) ألف جندي، بحسب إحصائية حصلت عليها (بي بي سي) من وزارة الدفاع الأمريكية.

(١١) تخلي أكراد العراق عن اللغة العربية: ترك الأكراد في شمال العراق اللغة العربية في المدارس والدوائر الرسمية، وكتبوا باللهجة الكردية منذ عهد مبكر من تاريخهم الحديث والمعاصر، وأخذ طلاب المدارس يدرسون مناهجهم باللغة الكردية من الصف الأول الابتدائي وإلى السادس الإعدادي، وأما اللغة العربية فتدرس عندهم كما تدرس اللغة الإنكليزية فيتخرج الطالب العراقي ولا يكاد يفهم من اللغة العربية إلا النادر الأندر، وقد بدت بغضاء بعضهم من اللغة العربية في تصريحاتهم الشهيرة حول رغبتهم لأن يعيدوا بسيارات حديثة اللغة التي جاءتهم على ظهور الجمال، ووجدت في شمال العراق دعوات تحررية تدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية لتفصل الشعب الكردي عن دينه وإسلامه وأمته، وهناك دعوات للتوقف عن تعلم اللغة العربية، وثمة متطرفون يطالبون حتى بأداء

الصلوات باللغة الكردية^(١)، ومن هنا فإننا نذكر إخوتنا المسلمين الأكراد في العراق بقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) الذي قال: (إنَّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله)^(٢).

ثم إنَّ اللهجات الكردية مختلفة، فأبي لهجة ستكون رسمية؟، أهلي اللهجة الكورمانجية الجنوبية (السورانية) المعتمدة في كردستان العراق التي يتحدث بها أهل السليمانية ومن حولهم؟ أم اللهجة الكورمانجية الشمالية (البهذانية) التي يتحدث بها أهل دهوك وقسم من أهالي أربيل؟ أم اللهجة الكورانية؟ أم اللهجة اللورية الفيلية؟.

(١٢) **التلاعب بدستور العراق بما يخص اللغة:** غيَّب الدستور العراقي الجديد الهوية العربية للعراق وأضعفها، وغيَّب اللغة العربية بوصفها لغة رسمية وحيدة للدولة والمجتمع، جاء ذلك في نص الدستور، ومن وراء كواليس هذه المادة الدستورية الأخطار الجسيمة الآتية:

- أ- محاولة تجهيل العراقيين _ بكل قومياتهم _ باللغة العربية، ليتحقق عندهم الجهل المطبق بالقرآن الكريم ولغته، ومن ثمَّ فهمه وتطبيقه والعمل به.
- ب- زرع بذور الفتنة والتفرقة بين أبناء البلد الواحد، والتعصب للقوميات ومظاهرها المذمومة، والتخلي عن الانتماء للدين الإسلامي الذي يعتنقه الغالبية منهم، ولسان الإسلام هي اللغة العربية.
- ج- إنَّ القوميات المدافع عنها في هذا النص، والأقليات المشار إليها بإمكانيتهم

(١) انظر: لغتنا والمؤامرة: ٩.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٣.

التواصل باللغة العربية، إذ لا أعتقد ثمة مسؤول حكومي أو سياسي عراقي مشارك في العملية السياسية اليوم لا يجيد اللغة العربية إلى الحد الذي يمكنه أن يتفاهم بها ويعبر عن أفكاره.

(١٣) سرقة المخطوطات العربية ونهبها: تعرض العراق على مر الأحقاب والسنين إلى هجمات شرسة ومدمرة استهدفت إطفاء شعلة العلم والحضارة واستهدفت الإسلام بشكل خاص وذلك لما للعراق من دور حضاري كبير، والتاريخ أعاد نفسه، ففي آخر النكبات التي شهدتها في الاحتلال الأمريكي في ٩/٤/٢٠٠٣م، تكرر الخراب والدمار وأحرقت مباني الدولة، وكان للمكتبات والآثار النصيب الوافر من تلك الأحداث فدخل اللصوص والمخربين الذين أتوا من وراء الحدود فعاثوا الفساد الكبير.

(١٤) مظاهر اللغة العربية في ظل الاحتلال الأمريكي المعاصر: تمر اللغة العربية اليوم في العراق الجديد في أزمة لم تشهدها من قبل، في الضغوطات والممارسات الآتية:

أ- هجر اللغة العربية من قبل الجيل المعاصر، فأصبحت الإنكليزية هاجس العراقيين بعد الاحتلال من أجل الحصول على وظائف في مؤسسات وشركات تطلب تعلم الإنكليزية وإجادتها، وكذلك زاد الإقبال على الإنكليزية من باب (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم) فأراد الناس أن يتعلموا شيئاً من لغة المحتل للمحادثة معه وفهم مقصوده في المداهمات ونقاط التفتيش، ومن مظاهر الهجر الأخرى الدراسة في أقسام اللغة الإنكليزية والعزوف عن أقسام اللغة العربية.

ب- ما تعرض له الأساتذة المختصون بعلوم اللغة العربية وآدابها مع غيرهم من الأساتذة من القتل والتصفيات الجسدية والمطاردة والملاحقة من قبل بعض

الأجهزة الأمنية، وكذا هجرة قسم منهم خارج العراق، وتشتتهم في ربوع بلدان الكرة الأرضية، فضلاً عن تداركه الموت وانتقل إلى جوار ربّه من عقليات اللغة وثرواتها.

ج- أكاد أجزم أن العراق اليوم ليس فيه أي نشاط لغوي عدا برامج اللغة في المؤسسات التعليمية، في حين كانت تعقد الدروس والحلقات والمواسم والمهرجانات وغيرها من الأنشطة اللغوية، وهذا إن لم يطفأ جذوة اللغة فإنه يضعفها.

د- إن أوضاع التعليم الركيكة في مؤسسات وزارة التربية ووزارة التعليم الحاليين ستعكس آثارها السلبية على اللغة العربية والعلوم الأخرى بسبب الأوضاع الأمنية المتردية، والجو النفسي المتأزم المؤثر على شخصية طالب العلم ومداركه.

هـ- شيوع العامية العراقية ذات المدخولات الأعجمية الكثيرة على حساب الفصحى في الأجهزة الإعلامية، وغياب الرقابة اللغوية، وعدم الاهتمام بشأن مراعاة القواعد، فضلاً عن الأخطاء اللغوية المتفشية على ألسنة الخاصة والعامة.

و- شراء دمم بعض الأساتذة المختصين في العلوم العربية والشرعية للتلاعب بالألفاظ والمصطلحات، وإعمال اللغة في التأويل والتخريجات الفلسفية والحيل اللغوية فيما يخص عقيدة الولاء والبراء، والفتاوى السياسية، وإقناع الناس بمواد الدستور وغيره، وصدق صلى الله عليه وسلم القائل: (إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)^(١).

(١) رواه أحمد في مسنده: برقم (١٤٣): ٢٢ / ١.

الخاتمة

قال الرافعي: (ما دُلت لغة شعب إلا ذُلَّ، ولا انخطت إلا كان أمرها في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة التي يستعمرها، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمتها فيها، ويستلحقهم من ناصيتها، ويحكم عليها أحكاماً ثلاثة في عمل واحد، فالأول: حبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا أو نسيانًا، وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع^(١)).

(١) وحي القلم : ٢ / ٣٣.

مصادر البحث ومراجعته

- ١ - أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية، د. رشيد العبيدي، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨م.
- ٢ - الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣م.
- ٣ - تاريخ بغداد، للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط / ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
- ٤ - حضارة العراق، د. بشار عواد معروف، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٥م.
- ٥ - خصائص اللغة العربية، محمد نعمان الدين الندوي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط / ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.
- ٦ - سكان العراق، دراسة ديموغرافية - جغرافية مقارنة، فاضل الأنصاري، ط / ١، دمشق، ١٩٧٠م.
- ٧ - السلاطين في المشرق العربي: معالم دورهم السياسي والحضاري، د. عصام محمد شبارو، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.
- ٨ - ظهر الإسلام، أحمد أمين، بيروت، ط / ٥، ١٩٧٨م.
- ٩ - لغتنا والمؤامرة، إبراهيم النعمة، أنوار دجلة، بغداد، ط / ١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.
- ١٠ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ب. ت.
- ١١ - معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي، ت ٦٢٦ هـ، دار الفكر، بيروت، ب. ت.

١٢ - مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، دار صادر، بيروت - لبنان، ط / ١، ٢٠٠٠م.

١٣ - مناهل العرفان في علوم القرآن، لـ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط/١.

١٤ - موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، شاكر مصطفى، دار العلم للملايين، ط/١، بيروت، ١٩٩٣م.

١٥ - موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط/٢، بيروت، ١٩٩٠م.

١٦ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، للشيخ محمد الطنطاوي، ط / ١، مصر، ب.ت.

١٧ - وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ب.ت.

المجلات والأبحاث:

١ - أثر الاحتلال الأمريكي على هوية العراق العربية، أ.د. حميد شهاب أحمد، كلية العلوم السياسية - جامعة بغداد.

٢ - قصة العامية في العراق: تاريخها وواقعها، الدكتور إبراهيم السامرائي، بغداد - العراق.

٣ - مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد (١٦)، ١٩٩٨م.

